# عنترة بن شدّاد

١

دار المعارف بمصر

# عنترة بن شداد

١

تأليف

حسن جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار

دار المعارف بمصر
١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م .

## مقدمة

يراد بالقصة ما رُوِىَ أو كتب من حوادث وقعت فعلا ، كالذى نقرؤه فى بعض كتب القصص والرحلات مثل كتاب العقد الفريد ، ورحلة ابن بطوطة ، وما جاء على شاكلتّهما ؛ أو ما روى أو كتب من حوادث صاغها خيال الواضع ، وأنشأها إنشاء ، دون أن يكون لها حقيقة خارجية وقعت بالفعل . وكلا هذين النوعين : الواقعى والخيالى ، يجىء لتصوير ناحية من نواحى المجتمع ، أو للإبانة عما فيه من محاسن ومساوئ ، أو للعظة والاعتبار ، أو للتفكه والتلهى ، أو غير ذلك . وقد يجنح الواضع للقصة فى النوع الذى يبتكره خياله إلى ذكر حوادث خارقة للعادة ؛ كالذى نجده كثيراً فى كتاب ألف ليلة وليلة ، وقصة سيف بن ذى يزن ، ومنه الأمثال المنسوبة إلى إيزوب اليونانى ، ولافونتين الفرنسى .

وقد أشربت النفوس قديماً حبّ القصة ، لما وجدته فى ظلالها من راحة ومتعة . وقد وجد فيها دعاة الإصلاح خير حافز للهمم ، وأنشط أداة لتنبيه الأحاسيس الراقدة ، والعواطف الخامدة ، والمواهب الخدرة ، ولهذا

كان للقصة حظ موفور من العناية بها ، والإقبال عليها ، فى جميع الأمم .

وقد استمدت القصة وجودها من تنازع البقاء ، الذى هو من ضرورات الأحياء ، والذى تجلى منذ القدم بين الإنسان وغيره من الحيوان والطبيعة ، وبين بعضه وبعض ، فصورت القصة حوادث الطبيعة والحروب ونكاية الحيوان بالإنسان ، ونما وجودها وامتد ، حتّى اتسع للأساطير والخرافات ذات الأهداف المختلفة ، والغايات المتنوعة .

وكان لتباين الأمم فى بيئاتها وأحوالها ومميزاتها وما تعارف عليه أبناؤها — أثر كبير فى أن كان لكل أمة من القصة تراث خاص بها ، حتّى كان من الحق أن تكون القصة مرآة ترى فيها صورة الأمة ، وأن تكون رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى غير « الكوميديا الإلهية » لدانتى ، وهما غير رواية « الفردوس المفقود » لملتن ؛ وأن تكون إلياذة هوميروس غير قصة عنترة .

ولم يغفل القرآن الكريم شأن القصة فى تهذيب الإنسان وحمله على التفكر ، فجاء بكثير من القصص ، حتّى كانت القصة تنزل بها سورة كاملة ، كسورة يوسف عليه السلام .

وقد ارتفع شأن القصص فى الإسلام ، حتّى كان عملاً رسميًّا يضطلع به رجال رسميون لقاء أجر يعطونه ، وحتّى جمعوا بينه وبين القضاء ، ومنهم سليمان بن عمر النجيبى بمصر سنة ٣٨هـ ، وقد وجدت القصة عناية فائقة بمصر فى عهد الفاطميين ، إذ اتخذوها سبيلا إلى قلوب العامة ،



واجتماعهم على محبة آهل البيت وشيعتهم ، والالتفاف حولهم ، وكان ازدهارها فى هذا العهد سبباً فى أن وضعت قصة من أعظم القصص العربية ، وهى قصة عنترة .

وقصة عنترة أطول القصص العربية وأجدرها أن تسمى إلياذة العرب ، اشتهرت وذاعت ، ونالت إعجاب الناس فأقبلوا عليها وشغفوا بها ، يشير إلى ذلك ما حكى أن تاجراً من حمص ، كانت تنتظمه فيها حلقة القصاص كل ليلة ، فحبسته بعض أعمال له فى حانوته ، وشغلته عن المدة التى كان يتعشّى فيها ، ثم أقفل حانوته وتوجه إلى القصاص مرجئاً تناول عشائه حتّى لا يفوته شىء من قصة عنترة ؛ وانفضت جلسة القصاص عند حبسه عنترة فى سجن كسرى ، ورجع التاجر إلى بيته حزيناً على عنترة ، فلما وضعت زوجته المائدة أمامه رفسها برجله ، وجعل يسب ويشتم فى ثورة كثورة الجنون ، وأبى أن يأكل وينام وعنترة فى سجنه ، فغادر منزله إلى بيت القصاص وطرق بابه وأيقظه من نومه ، ورجاه أن يقرأ عليه القصة حتّى يخرج عنترة من السجن ويأخذ ما يرضيه من الدراهم ، فجعل القصاص يقرأ على التاجر إلى أن انكشفت عن عنترة بليته ، فشكره التاجر ورجع إلى بيته هادئاً مسروراً ، وهناك اعتذر لزوجته عما فعله ، وشرح لها سببه ، وتناول عشاءه ونام .

أما الخاصة من الناس فلم تكن منزلة القصة فى نفوسهم أقل منها فى

نفوس العامة ، فكتب الأدباء والمستشرقون فيها كتابة ضافية ، وأخرجوا منها قصصاً فى كتيبات مستقلة .

ولم تُجدِ الدراسات ولا البحوث شيئاً فى معرفة من ألفها ، فتشعبت الآراء ، وليس بمعروف معرفة يقينية من ألفها ولا متى ألفت .

فهذا يعزوها إلى الأصمعى أحد رواة القرن الثانى للهجرة ، ولكن أخطاءها النحوية والصرفية واللغوية ، وبلوغها من ضعف الأسلوب إلى حد الإسفاف ، يباعد بينها وبين الأصمعى .

وذاك يعزوها إلى الراوية يوسف بن إسماعيل المصرى ، إذ كانت له حظوة لدى العزيز بالله الخليفة الفاطمى فى القرن الرابع للهجرة ، فأمره أن يضعها ليصرف الناس عن الحديث فى بيت الخليفة بما يريبه ، وينشب الظنون الخاطئة به ، فإن الريبة المظنونة إن تناقلتها الألسنة استقرت .

وثالث ينسبها إلى أبى المؤيد بن الصائغ العنترى ، وهو عراقى وطبيب وشاعر .

ورابع يعزو وضعها إلى أقلام عدة ، تناولتها بالكتابة ، لأن ما فيها من الخلط فى التاريخ ، ومن الأخطاء الكثيرة المتنوعة لا يعزّز نسبتها إلى مؤلف واحد بعينه .

وربما كان من الراجح أنها وضعت فى أواخر القرن الرابع الهجرى حوالى سنة ٣٨٠ هـ .

وقد تناولها الخيال المطلق الحر ، فجاءتنا مشتملة على حوادث تاريخية



لا تخلو من مبالغة أو تحريف أو كذب ، وعقائد إسلامية فى العصر الجاهلى عصر عبادة الأصنام والأوثان ، وعلى الرغم من ذلك فلا تزال واضحة التصوير لحياة الصحراء ، ومنفذاً للقارئ ينفذ منه إلى أيام العرب فى العصر الجاهلى ، فيشهد فيهم العرف والعادة والخلق والحكم السياسية .

وقد تناولت حوادث كثيرة وشخصيات عدة ، وحالات متقلبة ، فهنا حقد يشع مكراً ودسيسة ، وهناك مفاجأة باغتة ، وهذه غارة تشن ، وتلك رحلات بعيدة الشقة ، وهؤلاء فرسان يقتتلون ، إلى غير ذلك مما ورد فيها .

وبطلها عنترة الذى ولد فى بيت الرق ، ودرج فى حجر العبودية ، ونشأ من نسب وضيع لأمه ، فى وقت يقدس العرب فيه الحسب والنسب وعنصر الدم ، كما ولد فى تصوير القصة عالى الهمة عزيز الجانب ، له إرادة صارمة ، وعزم مشبوب لا تخبو ناره ، استطاع أن يستوى جالساً على عرش من سؤدد لا يسامى على الرغم مما وضع فى طريقه من عقبات ومخاطر ، كما استطاع أن يتزوج من عبلة ملبياً داعى الحب الذى امتزج بدمه ، وفيًّا لهذا الحب أكرم وفاء ، فهى لذلك قصة حماسية غرامية ، تبدو فيها الإرادة القوية الحاسمة فى أكمل صورها ، وأسمى أطوارها ، وأثبت مواقفها ، فهى فى عنترة لا تلين ولا تهون .

وقد جاءت بطولته فى القصة من النوع النادر الذى يفوق حد التصور ، فهو مارد من المردة تخشاه الجن ، ويشتت الجيوش ، ما بارزه أحد إلا ألقمه

موتاً أو أسراً ، وما كانت شجاعته لتخرجه عن حدود الحكمة والتروى وحزم السياسة إلى التهور والإعنات والمشاقة العمياء ، فهو يقدم ويحجم ويهادن حيث يجب الإقدام وينبغى الإحجام وتحسن المهادنة؛ وما كان يستغنى عن أخيه شيبوب : رأسه المفكر ، ومشيره المدبر ، ورائده الذى يكشف به ما خفى عنه، ومصباحه الذى ينير له سبل الخلاص من ورطاته.

وقد صورته القصة كاملاً فى بطولته ، فهو عزيز النفس ، عف اللسان ، حليم صبور ، يحمى الضعيف ، وينصر المظلوم ، وينتقم من الظالم ، ويصون الحريم ويعف عند المغنم ؛ كما صورت موته تصويراً له روعته وقدسيته وخلود فنه ، فهذا الأسد الرهيص الأعمى يحذق الرمى على مكان الصوت ، حتى إنه ليصيب الطائر فى الجو إذا مر من فوقه وسمع صوته ، يرمى عنترة بسهم مسموم ، وهو يذود عن قومه ويصد الأعداء عنهم حتى خارت منه القوى وبان له شبح الموت ، فركز رمحه واستند عليه وهو راكب جواده ، فخرجت روحه وهو على هذه الحال ، وجواده من تحته ثابت لا يتحرك ولا يميل ، ووقف الأعداء لا يجسرون على الهجوم عليه ، ولا أن يقتربوا منه، ثم يتحرك جواده فيقع عنترة على الأرض جثة هامدة ، وحينئذ يشمل الحزن عليه الأقرب والأبعد ، وتذبح على قبره ألوف النوق والجمال ، وتتوالى الوفود والرسائل من سائر الأقطار للتعزية ، وتنطوى صفحات لحياة مليئة بالمجد والفخار .

## ١

ذلك شدّاد بن قراد ، فى عشرة فرسان شداد من بنى عبس ، خرجوا من ديارهم ، يطلبون السلب والنهب ، وساروا فى الصحراء لا يقصدون جهة بعينها ، حتى أشرفوا على هضبتين بينهما خيامٌ مضروبة ومراع مملوءة بالأغنام والإبل والخيل ، وكانت لبنى جديلة ، وهم عربٌ أقوياء .

جلس الفرسانُ العشرة فى مكان بعيد يتشاورون فيما يفعلون .

أيجازفون بحياتهم ويغيرونَ على بيوت بنى جديلة ؟ أمْ يغيرون على أنعامهم وجمالهم ويتخطفونها ثم يفرّون بها قبلَ أن يعلم بنو جديلة وقبل أنْ يتحركوا لاستخلاصها منهم ؟

فاختاروا أن يذهبوا إلى المراعى ، وساقوا أمامهم ما شاءوا من إبل وخيل ، وفروا سراعاً هاربين ، ولكنهم كانوا على استعداد لقتال بنى جديلة إذا لحقوا بهم ليستردوها منهم .

استصرخ غلمان بنى جديلة بهم وأخبروهم ما فعله الفرسان بأموالهم ، فهبوا سراعاً إلى سيوفهم وجدوا فى اللحاق بهم ، وما لبث الفرسان أن رأوا غباراً يتصاعد فى الجو من خلفهم ، وكلما أمعنوا فى السير اقترب

الغبار منهم ، فأيقنوا أن بنى جديلة خرجوا فى إثرهم ليردوا أموالهم ، ومن أجل ذلك وقفوا يرتقبونهم ليقاتلوهم ويردوهم على أعقابهم خاسرين ، ثم يستأنفوا مسيرهم بما غنموا آمنين .

التقى الجمعان وحمل الفرسان العشرة على بنى جديلة حملة قاسية ، فمزقوهم شر ممزق ، وفرّ من أخطأه الموت منهم هارباً ، بعد قتال عنيف دام يوماً إلا قليلاً ، ثم استأنفوا سيرهم إلى ديارهم ، وكانوا قد أخذوا فيما أخذوا أمَةً سوداء تدعى زبيبة وولدَيها جريراً وشيبوباً .

ولما جاءوا ديارهم عشاء فرحين قسموا بينهم غنيمتهم فى حضرة مليكهم زهير ، وجعلوا له منها نصيباً ، وجعلوا الأمَةَ وولديها من نصيب الفارس شداد بن قراد ، وكانت قد لقيت منه فى الطريق إكراماً وعطفاً ، فلما وجدت نفسها من نصيب شداد فرحت فرحاً جمًّا وقالتْ فى نفسها : لنْ يضيعَ كريمٌ لدَى كريم .

وأسكنها شداد فى بيت خاص بها ومعها ولداها جرير وشيبوب ، وجعل يحنو عليها ويكثرُ الجلوس معها والتودد إليها ، ولما وضعتْ منه ولداً سماه عنترة ، وجاء أسود اللون أدْغم ، يضرب وجهه إلى السواد أكثر من سائر جسده ، واسع المحجرين ، مبسوط المنكبين ، قوى البنية ، وهو فى جملته أشبه بأبيه شداد فى خلقه وشكله ، وقد لحظت أمه عرامةً فى طفولته ، فكان إذا منعته الرضاع همهم ودمدم ، وجاش صدره بصوت تخاله زئيراً ،

واتقدت عيناه غضباً ونكيراً ، وأكب على قماطه تقطيعاً وتمزيقاً .

ولما قطع من حياته عامين أو يزيدان أخذ يدرج بين الخيام فى عرامة وثورة ، فهذه أوتاد خيمة يقتلعها فتقع على من فيها ، وهذه الكلاب الصغيرة يمسك أذنابها ويطوحُ بها فى الهواء ، سخرية بها واستخفافاً ، وهؤلاء صغارُ الأولاد يعكرُ عليهم صفوَ لعبهم ومرحهم ، فينهر هذا ، ويدفع ذاك ، ويلقى ذلك على ظهره ، فخلق له بذلك فى النفوس خشية وخوفاً كانا موضع دهشة الناس وعجبهم ، وبشيرَ حياة مقبلة كلها شجاعة لا تحدها غاية .

رأى الفرسان التسعة فى عنترة أمارات النجابة والشجاعة بادية ، فلعب الحقد فى نفوسهم على شداد بن قراد عاشرهم ، وغاظهم أن يكون عنترة عبده من دونهم ، فأجمعوا أمرهم بينهم أن يعيدوا قسمة الغنيمة ، وطمع كل منهم أن يكون هذا العبد الناشئ من نصيبه ، فاجتمعوا بدار شداد وقالوا : لقد كانت زبيبة وولداها جرير وشيبوب مما غنمناه من بنى جديلة ، أما عنترة فقد كانت حاملا به ولم يتناوله اقتسامنا ، فهو لذلك لا يزال ملكاً شائعاً بيننا ، فلنعد إلى قسمة غنيمتنا لنرى لمن منا يكون هذا العبد ، فدهش شداد لما سمع إذ كانت مفاجأة غير منتظرة ، وأصبح بين أمرين لا ثالث لهما ، إما نزولا على رأى الفرسان التسعة وتنازلا عن هذا العبد الذى رزقه من أمته ، وإن لم يلحقه بنسبه ، وذلك ما لا يرضاه لنفسه ، وإما



رفضاً لما يقولون واستمساكاً بالقسمة النافذة ، وذلك ما استقر عليه رأيه ، وعقد العزم على تنفيذه . وشجر بينهم الخلاف واحتدم النزاع حتى جردت السيوف وكادوا يقتتلون ، فطار أمرهم إلى الملك زهير ودعاهم إليه ليحكم بينهم ، فجاءوه فى مقعد الضيافة من داره ، ومعه ضيوف من بنى غطفان ، وحكوا قصتهم على ملأ من الجالسين معه ، فأمر أن يحضر العبد الذى كان سبباً للنزاع والخصام ، وكان قد أوفى على العام الرابع من عمره ، فخاله هو والحاضرون ابن عشر من سنيه ، لفراهة جسمه وعظم قوته ، فالتفت إليهم قائلا : يا بنى عمى ، وذوى قرابتى ورحمى ، إن أمركم هذا ينبغى أن تحكموا فيه قاضى العرب بشارة الفزارى ، فاذهبوا من فوركم إليه . وضعوا قضيتكم هذه بين يديه ، فعنده فصل الخطاب ، ولا يكن فى صدوركم حرج مما يقضى ، حتى تحقنوا دماءكم ، وينشر السلام ظله عليكم .

ولما جاءوا بشارة فى داره ، وقصوا ما لديهم على مسمعه سألهم قائلاً : هل منكم من أحد اتصل بأم هذا الغلام ؟ فقالوا : أسرناها ، ولم يمسسها إلا شداد بن قراد . وبعد أن صعد نظره فى عنترة وشداد قال : لقد شهدتم على أنفسكم ، وقد رأيت هذا العبد أشبه خلقاً بشداد ، ولهذا فقد حكمت له به وجعلته من نصيبه ، فثوبوا إلى رشدكم ، ولا تجعلوا للظلم سبيلا إلى نفوسكم ، وإلا قامت بينكم حرب وخيمة العاقبة . فرضوا بحكمه وانصرفوا متوادين مؤتلفين .

سأدركه فى لمح البصر أو هو أقرب ، ولكنه جعل يعدو فى سرعة ، وأنا أجرى من خلفه ، فما أصابه تعب يقفه ، ولا أنا أدركته إلا بعد أن أتعبنى وكدت أسقط من الإعياء ، ثم سقته أمامى إلى الرابية ، فما كاد يندس بين الغنم حتّى تفرقت ، فأقبلت عليها أجمعها ففر هذا الخروف ثانية ، فعدوت من خلفه حتّى عدت به إلى الغنم ، فشردت هنا وهناك فجمعتها ففر فأرجعته ، وهكذا استمرت الحال جميع النهار ، إلى أن عدت به وبالغنم إلى الديار ، ثم اغرورقت عينا شيبوب بالدموع ، فقال شداد :

ويل لهذا الخروف الشقى الشارد، دلنى عليه حتّى أذبحه وأريحك منه.

فالتفت شيبوب إلى الغنم وقال :

هو ذلك الذى يحدق إلىّ ببصره ، فلا رعاه الله ولا أكرمه ؛ فأمسكه شداد فإذا به ثعلب ، فابتسم وذبحه والتفت إلى زبيبة قائلاً : إن أولادك شياطين لا يبالون أن يتعرضوا للمخاطر ، فلا تكليهم إلى أنفسهم ، واصحبيهم فى رعى الغنم ولا تفارقيهم ، واحرصى على عنترة حرصاً شديداً فسيكون له شأنٌ خطير ، ومستقبل مملوء بعظائم الأمور ؛ فقالت : لك الأمر وعلىّ الطاعة .

* * *

ولما أصبحت زبيبة خرجت هى وأولادها إلى البرية ، وأمامهم الأغنام



تمشى بأمرهم حيث يشاءون، والأم حريصة على تنفيذ ما أوصاها به مولاها، غير أن عنترة لا يزال راكباً رأسه ، ولا يطيع إلا نفسه ، فكان يفارق بأغنامه أمه وأخويه ، ويمشى بها فى البيداء إلى حيث يشاء ، وهناك يمتطى جواده ويعدو به هنا وهناك ، كأنه فى ساحة القتال ، ليروض نفسه على الكر والفر والطعن والضرب فى ميادين الحرب ، وكثيراً ما نصحت له أمه بالبقاء معها وملازمتها فيأبى عليها ذلك كل الإباء ، ولم تجد أمه مفراً من إخفاء أمره هذا عن أبيه ، خشية أن يعتقله فيكبت مواهبه .

## ٢

وذات يوم أخذ عنترة عباءة أخيه شيبوب وعلقها فى غصن شجرة ، وركب فرسه وجعل يطوف من حولها ويرميها بسهامه ، كأنه يحارب فارساً ، حتّى جعل فيها ثقوباً عدة ، وكذلك فعل بعباءته وعباءة أخيه جرير ، ولما استراح العبيد فى الظهيرة ، وغرقوا فى نوم عميق ، كان شيبوب من بينهم ومعه العباءات الثلاث المثقبة ، إلا أنه تناوم ولم ينم ، حتّى استيقن من نومهم ولم يخش يقظة أحد منهم ، فاستبدل بالعباءات المثقبة عباءات سليمة غير مثقوبة من عباءات العبيد ، وذلك خشية أن تقع عين مولاه شداد على عباءاتهم المثقبة فيوجعهم ضرباً وإيلاماً .

وهبَّ العبيد الرعاة من نومهم ، فوجدوا من بين عباءاتهم ثلاثاً مثقوبة فجعلوا يتساءلون :

من فعل هذا بعباءاتنا ؟ إنه لمن الظالمين .

وأخذ كل منهم يتّهم الآخر ، وينسب إليه تلك الفعلة الظالمة قائلاً :

أنت الذى فعلت هذا بالعباءة فهى لك ، فيجيبه : لم يفعل هذا أحد غيرك فهى لك : وساد اللغط والضجيج ، وتحركت الأيدى باللكم والضرب وكثر الدفع والجذب ، وفى النهاية سالت دموع الضعفاء الذين أرغموا على أخذ العباءات المثقوبة بدلا من عباءاتهم السليمة .

واستمر عنترة يثقب العباءات وشيبوب يستبدل بها غيرها على نحو ما فعل فى المرة الأولى ، والفتنة تقوم بين العبيد على أشدها أياماً ، وهم لا يهتدون إلى من يفعل بهم هذا .

وذات مرة ذهب شيبوب إلى مراقد العبيد ليستبدل بالعباءات المثقبة عباءات سليمة ، وكان متعباً ، فأخذه نوم ثقيل جعل يغط فيه حتى صحا العبيد واستيقظوا وهو لا يزال غارقاً فى نومه ، ثم انتبه واستيقظ فلم يجد أحداً نائماً ، فندم وحمل عباءاته الممزقة وهو فى حيرة وخوف .

وكان شيبوب وإخوته قد تأخروا ولم يرجعوا إلى الديار فى الموعد الذى يرجعون فيه كل يوم ، فظن مولاهم شداد أن مكروهاً أصابهم فأخر عودتهم وخرج إلى الصحراء يطلبهم ، فلمحه شيبوب قبل أن يصلوا إليه فقال لأخويه :



ذلك مولانا مقبل علينا ، فماذا أنتم قائلون إذا سئلنا عن العباءات وما أصابها ؟ فقال عنترة :

دبر لنا حيلة ننجو بها ، فقال شيبوب :

تجدُون أنتم فى سوق الغنم وتسبقون ، أما أنا فسألتقى به ، وعسى أن تخدعه حيلتى ويصرفه عن إيذائنا ما ألقيه إليه من المعاذير .

ولما التقى شيبوب ومولاه أخذ يبكى ويضع التراب على رأسه ، ففزع مولاه وابتدره قائلاً :

ماذا جرى يا شيبوب ؟ هل أغار عليكم أحد أو أزعجكم وحش فأخر عودتكم ؟ فقال شيبوب :

ليت ذلك قد كان ! لقد دهمنا جراد كثير حجب عنا ضوء الشمس فرددناه بعباءاتنا فمزقها وصيرها إلى ما ترى — وأراه إياها — ولو لم نفعل ذلك لشردت الغنم وتاهت منا فى البيداء ، وهذا سبب تأخرنا عن موعدنا ! فقال شداد :

إنك لمحتال كذاب ، ومتى رأينا أو سمعنا جراداً يفعل بالثياب ما فعل بعباءاتكم ؟ ! فقال شيبوب :

ما قلت إلا حقاً ، ولقد كان من الجراد ما هو فى حجم العصفور ، ولهذا لم يكن من المستنكر أن يفعل بالعباءات ما فعل ؛ فانخدع شداد وقال :

لا تبعدوا فى الصحراء مرة أخرى حتى لا تكونوا معرضين لمثل ذلك .

وما زال عنترة يروض نفسه على أعمال البطولة ، ولا تزال قوته تنمو وتعظم ، ولا تزال شجاعته تنتشر بين الأحياء ، حتى هابه الناس وامتلأت قلوبهم منه رهباً ورعباً ، وستقرأ فيما يلى قصصاً من حياته ، تلمس فيها ألوان البطولة والوفاء والمروءة .

## ٣

كان شاس أكبر أولاد الملك زهير ، وولى الأمر من بعده ، وله عبيد يقومون على شئون ماله ويرعون خيله وإبله وغنمه ، ومن بينهم عبد يسمى « داجياً » وكان قوياً جريئاً ، يحسن القيام على مال سيده ، فهو من أجل ذلك يحبه ويطيع مشورته ، وهو من أجل ذلك مهيب الجناب ، مستكبر فى الأرض ، لا ينغص عليه حياة كبره إلا شخصيةٌ طماحة قوية ، ولم تكن تلك الشخصية إلا عنترة بن شداد ، من أجل ذلك كان عنترة مثار ألم لداج وموضع قلق له ، يتمنى له الموت حتى يستريح منه ، وأنّى له ذلك وهو لا يقدر عليه !

ورَد رعاة القبيلة الغدير عند الغروب ، ليسقوا دوابهم قبل أن يرجعوا بها إلى الاحياء ، فمنعهم داج أن يقربوا منه حتى يسقى أنعامه ، مع أن الغدير



واسع لا يضيق بالواردين جميعهم وإن كثر عديدُهم وعظم جمعهم ، فصدع الرعاة بأمره ، ونزلوا على حكمه ، وإن كانوا فى غيظ من ذلك ، وألم من تلك المعاملة الظالمة ، فهم دائماً يمتنعون عن الغدير فى مضض وذلة حتى يأذن لهم بعد أن يكون قد سقى دوابه وتركه إلى سبيله .

وذات يوم تقدمت إلى داج عجوز شمطاء ، تصطك منابت أسنانها عند حديثها ، ويلتوى لسانها فى فمها من شدة ضعفها ، وقالت له فى تضرع ومسكنة :

ألا ترحم كبرى وضعفى وقلة حيلتى وتسقى لى غنمى ؟ ! ! فإنى أقتات من لبنها ، وأرضع أولادها ، وأخشى أن ينال العطش منها فلا تجود بما يكفينى ويكفى الرضع من صغارها ! !

فلم يلتفت إليها وكأنه لم يستمع لأحد ، وألحفت فى السؤال مرة ومرة ، فما أعارها أذناً سامعة ، فرجعت إلى مكانها مكتئبة كسيفة البال ، تنحدر دموعها على ثيابها .

وتقدمت إليه عجوز أخرى ينم مظهرها عن نعمة سلفت وعزة خلت فقالت :

إنى امرأة — كما ترى — ضعيفة ، وقد جار علىّ الزمان ، فعدمت المال وفقدت الولد والرجال ، وانجلت شدة الزمان عن هذه الغنيمات التى منها

أقتات ، فارحم وحدتى ، وجُدْ علىّ بسقيها ، حتى أستطيع الرواح فى ضوء النهار بها .

فدفعها بيده دفعة ألقتها على ظهرها ، وانكشف ما كان مستوراً من جسمها ، على ملأ من العبيد والواردين .

كان ذلك كله على مشهد من عنترة ، فثارت فى صدره النخوة العربية ، ودنا منه وصرخ فى وجهه ، وأنذره هلاكاً عاجلا إن لم ينزل عن ظلمه ، فاستخف الغضب داجياً ولطمه على وجهه لطمة شديدة ، فأمسك عنترة إحدى رجليه ، وجذبه جذبة قاسية إليه ، وقبض بيده الأخرى على عنقه ، ورفعه إلى السماء ثم ضرب به الأرض ضربة قضت عليه .

أحاط بعنترة عبيد شاس بن زهير وأرادوا به الشر والأذى ، ولكنه لم يبال بجمعهم ، واختطف عصا من أحدهم ، وأخذ يقاتلهم بها ، غير هياب ولا مبال بما يصيبه من جراح أو خدوش .

## ٤

كان مالك أحبَّ أبناء زهير إليه ، لما عرف به من حماية الضعيف واحترام المرأة وعظيم المروءة ، وقد خرج هذا اليوم فى عبيده للصيد والقنص ، ولما دنا من هذا الغدير سمع صياحاً وجلبة ، فتوجه إليه ليتبين أمر هذه الجلبة ، فإذا عنترة جاد فى التنكيل بعبيد شاس أخيه ، وتمزيق جمعهم ، فسأل عن ذلك الفارس ، فقيل عنترة عبد شداد بن قراد ، وقصوا عليه قصته ، فصاح فى عبيد أخيه صيحة استنكار لما يفعلون من تجمعهم على عنترة وقتالهم إياه ، فقالوا :

لقد قتل هذا العبد « داجياً » عبد أخيك شاس ، فقال :

أحق ما تقولون ؟ فقالوا :

نعم ، إنه لحق ، وها هو ذا ملقى على الأرض

فعجب مالك من أمر عنترة وكيف صرع عبد أخيه المعروف بالشجاعة والقوة ، ثم نظر إلى عنترةَ نظرة فهم عنترة معناها وأنه يسأله بها عما حصل ، فقص عليه قصته فى طلاقة لسان ، وثبات جنان ، فأحبه لشجاعته ، وشرف دفاعه ، وعظيم مروءته ، وأعلن أنه حاميه ومجيره ، ورجع به مالك إلى دياره .

ولما دنا مالك من الخيام وجد أخاه شاساً راكباً فرسه ، متقلداً سيفه ،





متهيئاً للخروج والغضب بادٍ على وجهه ، فقال مالك :

أخى الكريم ، مالى أراك ثائراً غاضباً ؟ فقال :

ومالى لا أغضب وقد طمع فينا العبيد أبناء الإماء ؟!! لقد قتل عبد شداد عبدى داجياً ، ولن أرجع حتى أترك لحمه طعاماً للوحش والطير ، فقال مالك :

لقد أجرت عنترة وأعلنت حمايتى له .

فلم يحفل شاس بتلك الحماية ، ونظر فوجد عنترة فى عبيد أخيه ، فأقبل عليه يريد قتله ، فتصدى أخوه له ، وجرد كل منهما سيفه ، ولكنهما فوجئا بإقبال والدهما زهير ، وكان قد خرج فى حاشيته ، لشأن من شئونه ، وما لبثا أن كانا بين يديه ، فشكا مالك ما كان من شاس أخيه ، وموقفه منه موقف الخصومة ، انتصاراً لإثم ، ودفاعاً عن نقيصة وظلم ، وثأراً لعبد أثيم ، لا يحترم حقًّا ولا يرعى مروءة، وقص عليه قصة داج وعنترة ، فالتفت زهير إلى ابنه شاس قائلاً :

هبْ عنترة لأخيك مالك ، ولك منى عشرة عبيد فيه ، واحسم النزاع ولا تعقّ ما بينكما من أخوّة ، فأخوك يدك التى تبطش بها ، وعينك التى تبصر بها ، وسيفك الذى تنتصر به على الأعداء .

فاستحيا شاس من موقفه ، وكظم غيظه ، ودفن بغضه لعنترة فى صدره ، ورضى بما قضى به والده ، ثم أمر زهير أن يُدْنى منه عنترة ،

فأخذ يسأله عما دفعه إلى قتل عبد ابنه ، فقص عليه القصة فى بيان ساحر وجرأة نادرة، فابتسم الملك ابتسامة تنم عما أكنه فى نفسه لعنترة من محبة وعظيم تقدير ، ثم التفت إلى شداد — وكان فى حاشيته — وقال :

لقد أنجبْتَ وأثمرت ، وهنيئاً لك هذا الذى لا تزال تدعوه عبدك ، فأكرمْ عشرته ، وأحسنْ صحبته ، وعسى أن تحتاج إليه فى الشدة ، وكشف الغمة ؛ ثم انصرف كل إلى شأنه .

رجع شداد بعنترة إلى داره ، وكان قد سبقه إلى القبائل والأحياء خبره ، وما فعله بداج عبد شاس عند الغدير ، فارتقبت نساء بنى قراد وبناتهم قدومه ، وما كاد يصل حتى اجتمعن به يسألنه عن حادثته ، ويصغين إلى حديثه ، وكان من بينهن عبلة بنت عمه مالك بن قراد ، تتألق فى جمالها تألق البدر ، وكانت أكثر النساء والبنات إعجاباً به وثناء عليه وافتخاراً بمواهبه ، وكانت طول الجلسة تنظر إليه وهو ينظر إليها ، ثم انصرفن عنه حامدات شاكرات ، ولكن واحدة منهن ملكت عليه قلبه ، تلك هى عبلة بنت عمه .



## ٥

كان من عادة نساء العرب أن يشربن اللبن فى الصباح والمساء ، فيحلب العبيد النوق والنعاج ويقدمون اللبن إليهن فى البُكرة والعَشىّ ، وكان عنترة يسقى زوجات أبيه وعميه مالك وزخمة الجواد . وبنت عمه عبلة ، فسقى عبلة اللبن قبل سمية زوجة أبيه ، فرأت فى ذلك مساساً بكرامتها ، وامتهاناً لها وحطاً من قدرها .

فلما حضر شداد زوجها أظهرت من الكآبة والحزن ما جعله يسأل عن شأنها وما أحزنها ، فقالت :

وما لى لا أحزن وقد ديست كرامتى وانحطت فى بيتك منزلتى ، فقد تحكم عنترة فى أقدارنا ، وأنزلنا المنازل التى يراها هو ، لا التى يراها الواجب ويقرها عرف العرب ، فهو يقدم على زوجتك أنت ابنة عمه عبلة فى شرب اللبن متعمداً ، وآية تعمده هذا دأبه على عمله هذا أياماً متواليات وما رقب فيك أبوة ، ولا فى زوجتك أمومة ، ولا فينا معاً ولاء ولا سيادة .

وما كادت تنتهى من شكايتها حتى دخل عليه ضامر عبد الربيع ابن زياد بوشاية أثيمة ظالمة ، ليفسد بين شداد وعنترة ، حسداً له ونكاية فيه فقال :

يا مولاى ! إن عبدك عنترة يبعد بخيلك فى الصحراء ويرهقها فى الكر

والفر ولا يمكنها من رعى الكلأ وشرب الماء ، حتى هزلت ، ولك أن تنظرها عند مجيئها لتعرف : أصدقتُ أم كنتُ من الكاذبين .

قال العبد قولته ثم انصرف ، فانتهزت سمية هذه الفرصة وقالت :

إن عنترة ركب رأسه وجاوز حدّه ، وإن لم تبادر إلى زجره وتأديبه ، لقيت منه كل غم وشِقْوة .

عملان خطيران ؛ أما أحدهما ففى زوجة شداد ، وهى أمس الأشياء بشرفه ، وأما الآخر ففى ماله وهو عماد حياته ومعيشته ، عملان خطيران يغزوان قلب شداد معاً ، وطبيعىٌّ أن يحركا فى نفسه ساكن الغضب ، ولما حضر عنترة ضربه أبوه وأوجعه ، على مرأى من أمه زبيبة التى لم تنطق بكلمة ، وإن كانت متألمة ، لأنها لا تعرف للضرب سبباً ، وتلقى عنترةُ ضرب أبيه له صابراً متألماً ، لأنه لم يكن عنده نتيجة لخطيئة فعلها .

ولما عرفت أمه السبب من الإماء أخبرت ابنها عنترة ما كان من ضامر عبد الربيع ومن سمية زوجة أبيه ، فقال عنترة :

سأريح العباد من هذا العبد الواشى الأثيم .

وما لاح ضوء الصباح ، حتى كان عنترة بين البطاح ، باحثاً عن ضامر عبد الربيع ، فلما عثر به أمسك بيده اليمنى ثنايا بطنه ، وقبض بيده اليسرى على عنقه ، ثم رفعه ودكّ به الأرض دكة واحدة كانت هى القاضية .



وظن عنترة أن الربيع بن زياد ورجاله سيطلبونه ليثأروا منه ، فذهب إلى مالك بن زهير وأنبأه ما فعله بضامر ، فابتسم مالك وقال :

لا خوف عليك ، ثم تركه فى منزله ، وذهب إلى الربيع فى داره ، فوجده فى وليمة عند أبيه زهير ، فسره أن وجده فى بيت أبيه ، وذهب توًّا إليه ، فوجد الربيع وسادات بنى عبس وبنى زياد جالسين فى حضرة والده ، فحياهم وقاموا جميعاً له تحية واحتراماً ، وتباطأ فى الجلوس فقال الربيع :

اجلس يا مالكُ حتى يجلس القوم فقد طال وقوفهم ولا ينبغى أن يجلس أحدهم حتى تجلس ، فقال مالك :

اتحب أن أجلس معكم فرحاً رضى النفس ؟ فقال :

إى وحياة من هنا من سادات العرب ، فقال مالك :

وان أجلس حتى تهب لى عبدك ضامراً ، فقال الربيع :

اجلس فقد وهبته لك ، وإن شئت وهبت لك عبدين معه ، فقال مالك :

وإنى أشهد عليك السادة الحاضرين ، فقال :

نعم ، ورافع السموات العلا ، إنه لك دون منّ ولا أذى ، فقال مالك :

قبلت العطية ، وانكشفت البلية ، وأظلنا السلام بظله ؛ وجلس فجلس القوم معه ، فقال الربيع :

وما فى هبة العبد من هذا الذى تقول ؟ فقال :

إن عبدك ضامراً قتله اليوم عنترة ، وقد استجار بي فأجرته .

فأطرق الربيع كاظماً غيظه ، فقال الملك زهير :

ولأى شيء فعل عنترة فَعْلته ؟

فحكى مالك ما كان من ضامر لشداد بن قراد من وشايته بعنترة ، فابتسم الملك وهدأ الربيع وشرح صدره ، ووهب له عبدين من عبيده ، ثم رجع مالك إلى عنترة ، وقص عليه ما دار من الحديث فى شأنه ، فشكر له حسن صنيعه .

## ٦

اغتم شداد بن قراد بما فعله عنترة بعبد الربيع بن زياد ، وكان حاضراً فى وليمة الملك زهير ، ولما رجع إلى بيته أحضر إليه أخويه مالكاً وزخمة الجواد وقال :

يا بنى أبوىّ ، لقد ضاق صدرى ، ونفد صبرى بما فعله عنترة ، وأخشى أن يقع فى خطأ جسيم ، فيقتل أميراً أو يؤذى كبيراً ، فيضرم بين العرب ناراً ، يكون بنو عبس وقودها ، وربما قضى عليهم سعيرها ، وإن لم نعجل بهلاكه فلا نزال فى خطر من أعماله وأخطائه ، والرأى عندى أن نقتله خفية ، حيث يكون فى المرعى بإبله وخيله ، وحينئذ لا يدرى



مالك بن زهير ما فعلناه به ، ولا ينسب إلينا أحد أمر موته ، وسنكون أمام الناس من الجزعين لفقده ، فقال مالك :

نِعْم الرأى ! فلنعجل به من الغد .

وفى الصباح خرج عنترة بإبله وخيله ، وخرج أبوه وعمّاه على أثره ، وكان قد عزم هذا اليوم أن يبعد فى سيره إلى حيث يجد منجعاً بعيداً لم تطأه قدم راع من الرعاة ، ليخلو له الجو ، فيناجى بشعره عبلة ، وكان قد رآها فى منامه ليلة نهاره هذا ، تأنس به وتتحدث إليه ، فسار ثم سار ، ومن ورائه أبوه وعماه وهو لا يعلم، حتى كان بوادى السباع ، المعروف بوحشته بين البقاع ، وهناك سرح الإبل والخيل ترعى فى جنباته ، وجلس هو على ربوة عالية ، يناجى خيال عبلة .

وبينما هو فى طرب من خلوته إذ بسبع فى حجم الثور أو هو أكبر قد خرج من بطن الوادى :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آسٍ يجس عليلا

فلما شمت الإبل والخيل رائحته نفرت وتفرقت ذات اليمين وذات الشمال ، فتقلد عنترة سيفه ، وانحدر إلى بطن الوادى ليتبين سبب نفورها وتفرقها ، فوجد ذلك السبع قد ربض باسطاً يديه ، وهو يضرب بذنبه جنبيه ، ولما رأى عنترة قادماً نحوه ، كشر عن أنيابه ، وكأنه يبتسم للقائه ، وكان آباؤه قد وصلوا فقالوا : لنجلس وراء هذه الأكمة ، وسيقتل هذا السبع
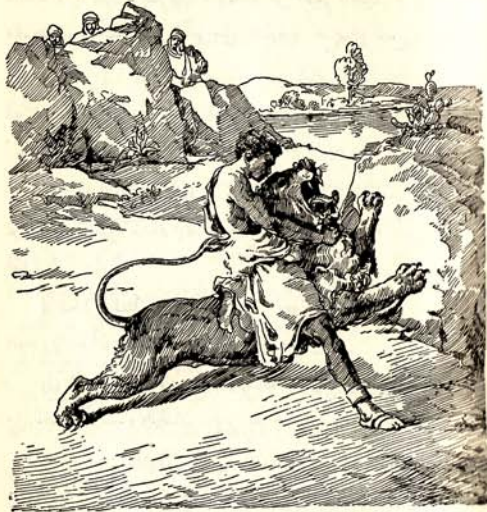
عنترة ، ويكفينا ما خرجنا من أجله ، ولكن عنترة ما أسرع أن ألقى سلاحه وقفز قفزة سريعة ، وفى أقرب من لمح البصر كان محاذياً كتفى الأسد ممسكاً فى التو فكيه بيديه ، وباعد بينهما حتى فصلهما إلى منكبيه ، وهو يقول :

لن أقتلك بحسامى ، ولكن أسقيك شراب الردى ببنانى ، ثم أوقد ناراً وجعل يشوى من لحمه ، وطعم منه ما أشبعه ، ثم جمع إبله وخيله ، ورقد تحت شجرة متوسداً رأس الأسد الذى قتله ، وكان كل أولئك على مشهد من أبيه وعميه المختفين وراء الربوة وهم فى دهشة لا تحدها غاية .

ولما وقع الأمر على غير ما كانوا يظنون ، وفعل عنترة بالأسد ما لم يكونوا يرتقبون ، قال مالك :

نهجم عليه الساعة فى رقدته ، فنضربه ضربة رجل واحد تميته وتهلكه ، فقال زخمة الجواد :

لن يفرط فى هذا العبد إلا رجل مجنون أو جاهل أحمق ، وربما هجمنا عليه فابتدرنا وقتلنا ، ولعله لم يشبع فيشوى لحمنا ويأكلنا ، كما أكل السبع من قبلنا .

وقال شداد : خير لنا أن نبقى على أنفسنا ونعود إلى ديارنا ، وهذا السبع الذى كنا نخافه على دوابنا قد قتله عنترة على هذه الصورة التى تدل على شجاعة نادرة وجرأة لا مثيل لها ، وأصبح هذا الوادى مرعى آمناً ، لا خوف منه على بهائمنا ورعاتنا ، ثم رجعوا خفية ، وهم معجبون

بعنترة ، وتلقاه شداد بعد عودته ، وهو فرح به ، فأجلسه بجواره على مائدته ، يأكلون ويشربون ، والعبيد من حولهم واقفون، ثم أوى كل إلى مضجعه ، وهكذا ضاع التآمر على عنترة ، كما ضاع السبع فى يده .

## ٧

أصدر الملك زهير أمره فى قومه أن ينفروا للإغارة على بنى تميم فى ديارهم ، فأوصى شداد ابنه عنترة أن يخلفه فى الأحياء لحمايتها ، فقال عنترة :

لا تخش شيئاً ، وإذا فقد عقال بعير فروحى فداء له ، فاطمأن لقوله ووعده أن يهب له فرساً وجبة عقب حضوره .

وفى غُدوة النهار غادر زهير وفرسانه ديارهم ، ولم يبق فيها إلا المخلفون من الضعفاء والنساء والولدان ، ومن يقوم بخدمتهم من العُبدان .

وفى يوم من تلك الأيام التى كان القوم فيها مع ملكهم زهير يغزون بنى تميم ، أقامت سمية زوج شداد وليمة حافلة على غدير ذات الأرصاد ، ودعت إليها نساء الحى ليقضين يوماً مرحاً ، فى ضيافتها وضيافة الطبيعة السمحة ، افتخاراً بشجاعة الرجال، وتفاؤلاً بما يرجون من نصر لهم على خصومهم ، الذين خرجوا هم لغزوهم ، وكان الوقت وقت الربيع رق فيه



النسيم وعطرت الأزهار أرجاء المكان ، وكانت عبلة تغنى وترقص ، وعنترة فى سكرة من حب وغرام .

وعلى غفلة من لهوهن ، انقض مائة فارس من بنى قحطان عليهن ، كانوا قد خرجوا للإغارة والكسب، فأسروا من أسروا منهن ، وأردفوهن خلفهن، وهموا بهن إلى ديارهم راجعين، وكان عنترة أعزل، لا يجد سلاحاً يدفع به الفرسان المغيرين ، وما كاد يلمح عبلة خلف فارس على ظهر جواده ، حتى أسلم ساقيه إلى الريح ولحق به ، فأمسكه ودق الأرض بعنقه ورأسه فقضى عليه ، ثم أخذ سَلَبه ، وتقلد عدة حربه، وامتطى جواده مخلفاً عبلة ، وجرى خلف الفرسان المدبرين ، فأعمل فيهم سيفه ورمحه حتى قتل منهم عشرين فارساً ، ثم أطاح برأس قائدهم وأمات معه عشرين آخرين ، وألقى الرعب فى قلوب الباقين ، فعولوا على النجاة بأنفسهم هاربين ، ولاذوا بالفرار غير ظافرين ، وانجلت المعركة عن نصر مبين لعنترة ، وسلامة للنساء شاملة ، وغنم عظيم من الخيل والأسلحة، فأحبته النساء حباً جماً ، وأعجبن به إعجاباً عظيماً ، وتبدل بغض سمية له محبة ، وأصبحت له أشفق من الوالدة ، ثم رجعن متفقات على أن يكتمن أمر هذه الوليمة عن بعولتهن ورجالتهن .

رجع زهير فى كتائبه غانمين ظافرين ، وتفقد شداد غداة قدومه وعودته ، خيله وإبله فوجد من بينها أربعين جواداً ، فسأل عنترة عن هذه

الخيل التى امتلأ بها المرعى ، فقال :

هذه يا مولاى خيل تخلفت عن أصحابها ، فرأت خيولنا وإبلنا فانحازت إليها ، وأقامت بينها ؛ فقال شداد :

ما قلت حقًّا ، ما هذه إلا خيل أخذت من تحت فرسانها ، وما أنت براجع عن قتل السابلة وسلب أموالهم حتى توقد نار حرب بين القبائل لا تُبقى منهم باقية ، فلا تبرحْ لنا مُقاماً ، فإنا لا نريدك ترعى لنا إبلا ولا غنماً ، وضربه ضرباً فزعت له سمية زوجُه ، فخفّت إليه شافعة باكية ، فدفعها شداد بيده ساخطاً غاضباً ، فعادت إليه مُصرة على شفاعتها ، وإن وكزها وكزة قضت عليها ، فقال شداد :

عجبت الآن من عطفك على عنترة ، بعد بغضك إياه وكراهيته !! فقالت :

أعفه من الأذى ، وأنا أقصُّ عليك ما جرى . ثم حكت له ما فعله ببنى قحطان يوم غدير ذات الأرصاد ، فذهبَ عنه الغضب وقال :

إن أمر هذا العبد عجيب ، وأعجب منه إخفاؤه هذا الحادث عنى ، وصبره على ضربى له وغضبى ؛ ثم رضى عنه ، وفرح به ، فاطمأن عنترة وفرح برضا أبيه عنه .



## ٨

دعا زهير شداداً وإخوته إلى وليمة النصر على بنى تميم فى دار ضيافته ، وكانت فُسطاطاً من خالص الوبر ، بُطن بستائر الحرير المنمقة ، وفرشت أرضه ببسط ثمينة ، عليها نمارق مصفوفة ، والعبيد حافون من حوله ، وواقفون أمامه ، فلبّوا دعوته ، وصحبهم إليها عنترة ، ولما اطمأن بالقوم المكان ، وانتهوا من الشراب والطعام ، أخذوا يتبادلون الحديث ، من تليد وطريف ، فما سمع الملك أعظم وأشهى من حوادث عنترة ، ولم يكن أحد من الجالسين أقل من الملك إعجاباً به ، واعترافاً بفضله ، فقال زهير : لقد علمتُ من يوم أن قتل عنترة عبد ابنى شاس ، دفاعاً عن إنسانية مقهورة ، وكبتاً لوحشية طاغية ، وتحقيقاً لمساواة عادلة ، أن سيكون له شأن عظيم بين الناس ، فحق علينا أن نقدره قدره ، وننزله المنزلة اللائقة بكريم أفعاله ، فالأعمال الطيبة حسب من لا حسب له ، وأعظم الناس أنفعهم للناس . ثم دعا عنترة فأقبل وحياه ، وأمره أن يجلس معهم ، ويقاسمهم حديثهم وسمرهم ، وأعجب الملك بحديثه ومنحه حلة وعمامة من جنس ما يلبسه علية القوم وساداتهم ، وانفرط عقد المجلس فى المساء ، فرجع فى صحبة أبيه وهو منشرح الصدر مطمئن النفس

## ٩

وفى الصباح ركب عنترة جواده إلى المرعى، وأخواه يسوقان الأنعام بين يديه ، وهو لا يرضى إلا المنتجع البعيد الذى يسكن إليه ، وكان قد سبقه أبناء الملك زهير إلى منتجع فى سبيله ، إذ دعاهم إليه عمهم أسيد بن جذيمة فى وليمة أقامها لهم على ربوته ، يأكلون ويشربون ، ويمرحون ويرتعون ، وكانوا عشرة إخوة ، نزلوا على ربوة عالية ممتدة الجنبات ، مكسوة بالنبات ، ومن حولها عيون نابعة ، وغدران صافية ، فطعموا وشربوا ، وحانت من مالك بن زهير التفاتة ، فلمح عنترة وأخويه يوردون دوابهم ، فأرسل فى طلبه ليجلس معهم ، ولكن شاساً اشمأز قائلا : أيها الأخ العزيز ، ما هذا الذى أمرت به ؟ ! لقد أفرطتم فى تقدير هذا العبد وتكريمه ، ورفعتموه إلى منازل السادة ، وهذا أبى أجلسه بالأمس إلى جواره ، كأنه سيد حى أو رئيس قبيلة ، ولقد رأيته الآن قبل أن تراه ، فهممت أن أقتله ، لما فى نفسى له من الحقد والموجدة ، إذ قتل عبدى داجياً قتلة لا يزال ألمها فى صدرى ، ولكنى آثرت أن أتركه حتى لا أعكر به صفو اجتماعنا ، فإن أحضرته الآن فإنى قاتله .

وما كاد شاس ينتهى من قوله حتى صرفهم عن الحديث فى عنترة ، غبرة فى الأفق تخطو إليهم مسرعة ، ثم انكشفت عن ثلاثمائة فارس على



خيلهم ، وقد جردوا سيوفاً ترسل وميضها إلى الأبصار ، وتقلدوا رماحاً تحمل الموت فى النصال ، وكانت هذه الخيل لبنى قحطان ، عضهم الزمان بنابه فتفرقوا سرايا فى الأرض ، يبتغون الغنائم والمرزق ، ومنهم تلك الفئة التى مزقها عنترة يوم غدير الأرصاد، فى وليمة سمية زوج أبيه شداد .

عرف أبناء زهير أن هؤلاء الفرسان يقصدونهم فنزلوا إلى الوادى واعتصموا بخيلهم وأسلحتهم ، واستعدوا للدفاع عن أنفسهم ، وهم يتوقعون شراً وبيلا لقلتهم وكثرة المغيرين عليهم ، والكثرة — كما قيل — تغلب الشجاعة .

أما عنترة فقد كبر عنده أن تصاب بمكروه جماعة هى الآن فى جواره وكأنها فى حماه ، ورأى العدوان عليها عدواناً عليه وهو لا يرضاه ، وزاد فى حماسته وغيرته أن رأى فيهم مالك بن زهير الذى أحبه ، وأجاره وآمنه ، فانقض عليهم انقضاض الصاعقة ، وصرع عميدهم ، وفرش الأرض بجثث كثير منهم ، ففزعوا ، ولم يجد الباقون منهم معصماً يعصمهم إلا الفرار ، وانفرجت عن أبناء زهير تلك الشدة ، وإن ألسنتهم لتلهج بحمد عنترة وشكره .

وكان قد خف بعض العبيد إلى زهير يستصرخونه ، فأسرع إلى أبنائه فى قوة من رجاله ، فوجد عنترة قد قهر الأعداء ، وحمى الأبناء ، فانشرح صدره ، ورجعوا جميعهم إلى ديارهم فرحين . وهناك أقام زهير فى بيته وليمة لأبنائه ، وأهله وأقربائه ، فأجلس عنترة بجواره ، وسقاه من خاص شرابه ،

ومنحه جواداً وسيفاً وحلة فاخرة ، ورفعه مكانة عالية ، وسماه « حامية عبس » وقال لأبيه شداد : لا يرعى عنترة بعد اليوم إبلا ولا غنما ، ولكن يكون مع الغزاة والأبطال ، يعصم الأحياء ، ونقهر به الأعداء .

ولم يتركه الدهر من غير حاسد وشانئ ، فكانت نار الحقد تتلظى فى صدور ثلاثة ، كل منهم له ثأر يطلبه ؛ شاس بن زهير ، والربيع بن زياد لقتله عبديهما ، وعمارة بن زياد أخو الربيع ، إذ كان ينافسه فى محبة عبلة ، وكان عنترة كلما ارتفع قدره ، ازداد شغفه بعبلة ، فأنشد فيها شعراً ردده كل لسان ، حتى غزا حبه إياها وشعره فيها ، بيت أمها وأبيها .

## ١٠

استفاض الحديث فى دار عبلة عن ذلك الشيء الذى بينها وبين عنترة ، والذى سارت بذكره الركبان وتغنت به الحداة والرعيان ، فأرسلت إليه أمها وقالت له :

لقد سمعت أنك تحب ابنتى ، وجرى ذلك على لسانك ، غير كاتم منه شيئاً فى صدرك ، وكانت عبلة حاضرة ، فابتسمت من قول أمها فرحة ، وبدت على ثغر عنترة ابتسامة ، وقال :

وهل رأيت كريماً يبغض مولاته ؟ ! إنى أحبها حباً سرى فى دمى ، ونطق به لسانى ، فقالت أمها :



يا عنترة ، سمعنا عن فعالك المجيدة التى فقت بها ذوى الحسب والنسب ، وسأشير على بعلى مالك أن يزوجك خميسة أمة ابنتى عبلة ، فقال :

ومن سمك السماء فسواها ، وبسط الأرض ودحاها ، لا أتزوج إلا من يريدها قلبى ، فقالت عبلة :

بلغك الله أمنيتك ، ورزقك بمن تحبها وتحبك ، فقال عنترة :

لا فُضَّ فوك ، ولا حرمت الرشد والتوفيق ؛ ثم ذهب كل إلى شأنه .

* * *

لحظت أم عبلة أن لسان عبلة لا يفتأ يتحرك بذكر عنترة ، فى الفراغ والعمل ، وفى مجالس اللهو والغناء ، على مسمع من نساء الحى ولداتها ، فجلست إلى عبلة قائلة :

أنا أمك الحنون ، والأم سر بنتها ، فلا عليك أن تفضى إلىّ بدخيلة نفسك ، وتطلعينى على سرك ؛ فقالت عبلة :

ذلك حق يا أماه ولن أكتم عنك شيئاً ، فقالت :

لقد ملأ عنترة سمع الدنيا بشعره فيك ، وأصبح اسمك شغل الناس من باد وحاضر ، وأراك ترددين شعره ، حتى ملأت به الأحياء والأخبية ، وأصبحت من أجل ذلك أحدوثة الأندية ، وقال الناس : إن عبلة شغفت بعنترة ، وملك عليها نفسها وحسها ، وسمعها وبصرها ، ويدها ولسانها ،

ولا أرى عليك غضاضة ونكراً ؛ فقالت عبلة :

وأية غضاضة فى هذا يا أماه ؟ فقالت :

ألم تعلمى وقع هذه الحال على أبيك وأخيك ؟ فقالت :

أعلم ذلك ، وأعلم أنهم يجرون وراء الثراء ، فقالت :

أى ثراء يا بنيتى ؟ فقالت :

ثراء عمارة بن زياد بما له من خيل وإبل وعبيد وإماء ، وحسبوا أن الرجولة فى المال وكثرته ، لا فى الخلق وطهارته ، ونسوا أن عنترة لو أراد أن يملك بسيفه ما يملأ الأرض خيلاً وإبلا لفعل .

فقالت :

إن أباك يا بنيتى ذو حسب ونسب ولا يريد أن يزوجك إلا من حسيب نسيب ، وعنترة عبد لا يملك إلا سيفه ولسانه .

تأوهت عبلة وقالت فى نفس طويل :

آه يا أماه ! مازلنا نجرى وراء الخيل والإبل والغنم ووراء الحسب والنسب اللذين نلتمسهما فى الأبوة والخئولة ، وإن لعنترة حسباً ونسباً غير الحسب والنسب اللذين تعرفين ، فهو لا يستمدهما من أبوة ولا خئولة ولكنه يستمدهما من سيفه ورمحه وقلبه وخلقه ، فقالت أمها :

وماذا ترين فى شعره الذى ملأ به الأسماع والبقاع ؟ فقالت عبلة :

ذلك وجيب قلبه ، يصوغه فى شعره ، ويعطر الأجواء بنفحاته ،



وذلك لى فضل عظيم ، منحنى إياه بطل عظيم ، حتى عرفنى القاصى والدانى ، وشغل الناس حديثى أينما كانوا ؛ فقالت :

كأنى بك وقد أحببت فى عنترة الفضل والرجولة ، والشهامة والمروءة ؛ فقالت عبلة :

لم تخطئى يا أماه الحقيقة ، وإنى بحبه لسعيدة ؛ فقالت :

وكيف حالك إذا جمعكما وحدكما مجلس ؟ فقالت عبلة :

بسمات مكنونة ، تشع براءة وعفة ، وومضات خاطفة ، تتألق هوى وصبابة ، وملامح وجه نقرأ فيها ما لا يقرؤه الناس ؛ فقالت :

لقد أعظمت الآن حبك ، وسموت فى نفسى برأيك ، وأرجو لأبيك وأخيك سداداً ورشداً ، ولك عزة ومجداً ؛ فقالت :

ولازال فضلك علىّ سابغاً !

## ١١

أقام الربيع بن زياد وليمة فى داره ، حضرها شاس بن زهير صاحبه ، ومالك والد عبلة ، وغيرهما من أشراف القبيلة ، فلما أكلوا وشربوا دار ذكر عنترة وعبلة على ألسنتهم ، وما أنشده من الشعر فيها ، وقال شاس :

إن هذا العبد قد ارتفع بنفسه فوق منازل العبيد ، وأصبح يعتقد أنه سيد من سادات بنى عبس ، وتلك حالة لا نستطيع الصبر عليها والإغضاء عنها ، فقال الربيع :

ما مهّد لهذا العبد سبيله إلى التطاول والتكبر إلا أبوك وأخوك ، ذلك رفعه وقربه ، وجعله من كبراء عشيرته ، وهذا كفله وحماه ، وحال بينه وبين ما كان قد أُعِدّ له من قتل أليم ، وقد كان سبباً فى أن أهدر دم عبدين من عبيدنا كانا لنا قرة أعين ، فقال عمرو بن مالك أخو عبلة :

إن وخز السهام أخف وقعاً من هذا الكلام ، فهل من سبيل إلى قتله ، وغسل شرفنا بدمه ؟ !

فاتفق شاس والربيع بن زياد أن يعد كل منهما عشرين عبداً من أشداء عبيده ويتحينوا فرصة تفرده فى الصحراء ويحمل جميعهم عليه حملة رجل واحد ، على غير علم منه ، ويقطعوه ويمزقوه ، وبذلك يهدأ كل غيور ، وتطمئن القلوب فى الصدور .

* * *

وكان لشداد بنت تدعى مرْوة ، من زوجة أخرى غير سمية ، وهى متزوجة برجل من بنى غطفان كان يزوج أخته من فارس من بنى قومه ، ودعت مروة أباها شداداً وبعض رجاله ونساء بنى عبس إلى وليمة



عرس أخت زوجها ، فسار إليها شداد وإخوته ورجاله ، ومن خلفهم النساء وفيهم عبلة وأمها ، يحميهن فى مسيرهن ، ويقوم بخدمتهن وشئونهن ، عنترة وأخوه شيبوب ، وكان أن تأخرت قافلة النساء ، فطلع عليهن فى الطريق مائة فارس بخيلهم وأسلحتهم من بنى المصطلق يطلبون مغنما ، وفى هذه اللحظة أقبل عبيد شاس والربيع يطلبون رأس عنترة .

فقال بسام عبد الربيع وأخو ضامر الذى قتله عنترة — لعبيد شاس والربيع : نحن نترك بنى المصطلق يقاتلون عنترة ، فإن ضعفوا أمامه شاركناهم ، وشددنا أزرهم وعاوناهم على قتله ، وإن غلبوه وقهروه كان همنا حماية نساء بنى عبس ، حتى لا تمتد إليهن يد بنى المصطلق بسوء ، وإن فنينا جميعاً فى سبيل ذلك ، فرضوا بذلك واتفقوا عليه .

ولما رأت النساء فرسان الأعداء بكين وضربن على صدورهن ، وأيقن مذلة وسبياً ، ولكن عنترة ابتسم إليهن وتقدم إلى أم عبلة قائلا : كيف حالكن الآن مع هذا العدو الذى غشينا بقوته بغتة ، فى هذه الفلاة المنقطعة ؟ ! فقالت :

بلاء طلع ، وسبى وقع ، وليس لنا فى ردهما حيلة ، فقال :

أتزوجينى عبلة وأنا أرد هذا العدو لأول حملة ، وتأخذين ما أغنمه من خيل ومال ، على أن يكون بعض الصداق ؟ فقالت :

أفى مثل ذلك الوقت يركن المرء إلى المزاح ؟ ! فقال :

لا أقول إلا صدقاً ، ولا أعرف وقت الجد مزاحاً ، واعلمى أنك لو وعدتنى أن أتزوجها غنمت الخيل وقتلت فرسانها ، ورددت هؤلاء على أدبارهم نادمين ، فقالت :

قم لشأنك ، وادفع عنا فهى لك إن كانت من نصيبك ، فقام عنترة إلى أخيه شيبوب وقال :

احم ظهرى واتركنى وشأنى ، فقال :

لا تخش من خلفك خطراً ولا شرًّا ! ثم صاح فيهم عنترة صيحة زلزلت الأرض والجبال ، وصال فيهم صولة قتلت قائدهم ، ثم صال أخرى وأخرى فإذا القوم يصرعون واحداً فى إثر واحد ، ولما كثر قتلاهم فر الباقون هاربين ، وتلقت النساء عنترة بالزغاريد والثناء .

ولما رأى العبيد أفاعيل عنترة ببنى المصطلق خارت عزائمهم وتملكهم الذعر فجبنوا عن ملاقاته وعادوا إلى الديار فاشلين وادعوا أنهم لم يعثروا على عنترة .

وسار عنترة بالقافلة ، حتى وصلت سالمة آمنة ، وهناك تلقوهن فى سرور عظيم ، وما كدن يجلسن حتى أنبأنهم هذه الحادثة التى رفعت عنترة فى نفوسهم إلى منزلة سامية ، لا يدانيه فيها عبيد ولا سادة ، ولما انتهت أيام الوليمة السبعة رجع بنو عبس ونساؤهم ، وعنترة معهم ، إلى ديارهم ، فماذا وجدوا هناك ؟

* * *



وجدوا نساء الحى قد شردن تشريداً ، واعتصمن بالبكاء والصياح ، واعتصم الرجال بأذيال البيوت ، يدافعون مدافعة من أيقن الردى ، وكانوا قد أوشكوا على فناء عاجل ، ولكن ما سبب هذا البلاء الواقع ، الذى ليس له من دافع ؟

كان الملك زهير قد أخذ فرسان بنى عبس وعدنان ، وسار بهم يغزون ديار بنى قحطان ، ويطلب عدواً له فيها يسمى المتغطرس ، وهو شهم قوى البأس ، شديد المراس ، من عرب بنى قينان ، وكان قد تجهز لغزو الملك زهير فى داره ، فخرج هذا فى جمعه ، ليلقاه فى طريقه ، قبل أن ينزل بأرضه ، إذ عزّ عليه أن يغزوه أحد فى عقر داره ، وترك لحماية الأحياء أخاه زنباعاً فى فئة قليلة من بنى عبس ، وشاء القدر ألا يتلاقيا فقد ذهب زهير إلى المتغطرس من طريق ، وأتى إليه المتغطرس من طريق ، والصحراء كالبحار كلها منافذ ومتاويه ، ولما ورد المتغطرس ديار بنى عبس وجد عصبة من الرجال ، قلّ عددهم ، وضعف جمعهم ، فقصد الخيام والخدور ، ودار بينه وبين هذه العصبة معركة بلغت أشدها ، وكانت بين قوة جارفة كاسحة ، هى قوة الغازين من بنى قحطان ، وقوة ضعيفة مستميتة مستبسلة هى قوة المخلفين من بنى عبس ، ولكنها لم تغن شيئاً ، فلاذت بأذيال الخيام مدافعة فى استماتة كانت فى الواقع رمز استبسال وبطولة ، وأكلت سيوف المغيرين ورماحهم كثيراً منهم ، وشرّدت النساء وامتلأت بهن البقاع على حال أسيفة تنم عن لؤم المغيرين ،

وتجردهم من كل نخوة وكرم ، حتى زوج الملك زهير نفرت فيمن نفرن ، وحل بها من الهون ما حل بالجوارى والعبيد .

حضر شداد وشيبوب وعنترة ، فوجدوا ذلك البلاء المصبوب على بنى عبس رجالهم ونسائهم ، فنظر شداد إلى عنترة قائلا :

هذا يومك ، وإن لم تكشف عنا هذا الضر الماحق ، والكرب الساحق ، فلست منى ولست لك ، فإما فشل نقصلك وقبرك ، وإما نصر رفع ذكرك ، وخلد حياتك ومجدك . فابتسم عنترة ابتسامة الواثق المعتد بنفسه وقال :

سأريك اليوم رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إليهم غرقى فى دمائهم ، أو هاربين إلى أوطانهم ، فاجمعوا فرسانكم ، وقاتلوا تلك الشرذمة التى فى الميسرة ، ذات الأعلام المرفوعة ، حتى تشغلوها عنى بقتالكم ، فصاح شداد يا لعبس ! يا لعدنان ! هلموا بسيوفكم معنا إلى ميسرة الأعداء . أما عنترة فقد نزل على ميمنتهم ، وجال فيهم جولة حامية ، فمزق جمعهم ، وقتل المتغطرس قائدهم ، ثم ارتد إلى ميسرتهم فأعمل فيهم سيفه ، وبذلك هزمهم وغنم خيلهم وأسلحتهم ، ثم جاء أباه فقبل يديه ، وقبله أبوه بين عينيه ، والتفت إلى أخيه زخمة الجواد وقال : لقد ملكنا بهذا العبد رقاب ذوى الحسب والنسب من رجالات العرب ، ولولا أنه ابنى ما صبر على تلك الشدائد من أجلى ، فقال أخوه :



كيف لا يكون ابنك وقد حكم لك به قاضى العرب ؟ ! فلا تجحد نسبته إليك ، فابتسم شداد ابتسامة تنم عن تردد يساوره واعتراف بالبنوة يخشاه ويحذره ، ثم غطى هذه الابتسامة سحابة من غضب وعدم اطمئنان ، فعلم عنترة ما فى نفس شداد من امتناع وإباء ، ومخافة من إسناده إليه ، وجعل ذلك فى خبيئة نفسه فلا يبديه لأحد .

* * *

ولما خلا عنترة بأمه زبيبة قال :

لقد سمعتُ اليوم من مولاى شداد ، وأخيه زخمة الجواد ، ما أورثنى همًّا وأكسبنى غما ، وهأنذا سائلك ، فاصدقينى الخبر ، ولا تنكرى منه شيئاً ، وإن كان لا يروقك .

من أبى الذى دمى من دمه ، وروحى من روحه ، حتى أنتسب إليه ؟ فقصت عليه قصتها من يوم أن أسرتْ إلى أن حكم قاضى العرب لشداد بعنترة ، فقال :

إذا كان الأمر كما تقولين فلمَ لا ينادينى كما ينادى الوالد ولده ؟ ! فقالت :

إنى من أجل ذلك حزينة ، ولا أدرى له سبباً إلا ما أظنه من أن شداداً يخشى من ذلك العار ، فقد يقول العرب : إنه أبى بك من سفاح ،

أو أساء إلى أنساب العرب الصريحة بنسبتك إليه وأنت لا تزال فى نظرهم ابن أمة ، مع أن أمرى وأمرك كما سمعت من أملك ، وعجيب فى الناس أن ينسوا ما للأسير من شرف سابق وأصل عريق ، وبيت لا يسامى سؤدداً وعزة ، فقد عرفت أنى من أكرم البيوت فى الحبشة ؛ فقال :

إن الأمر بعد ذلك يسير ، وما عليه إلا أن يلحقنى بنسبه ، وسأكفيه ما يخشاه ، ولن يرى لساناً يتحرك بما لا يرضاه ، فسأخرس بسيفى هذا الألسنة فى الأفواه ، وسأطلب منه نسبتى إليه ، فإن رضى وإلا رحلت إلى قوم يعرفون قدرى ، وينزلوننى بينهم المنزلة اللائقة بى ، وسأطلب من أخيه مالك يد ابنته عبلة ، فإن رضى وإلا قتلته شر قتلة ، فقالت أمه :

لا تفعل شيئاً من هذا ، فإنهم الآن يحبونك ، بما أبديته من جليل فعالك ، فإن اعتديت وافتريت ، هدمت من حبك ما بنيت ، فاصبر صبراً جميلا ، والأيام حبالى يلدن كل عجيب ، فقال :

إن أم عبلة وعدتنى أن تزوجنيها ، فقالت :

ذلك فى عرف العرب ما لا يكون الآن ، لأنك فى زعمهم عبد لا نسب له ، ومن العار حينئذ أن تبنى بسيدة لها حسبها ونسبها ، فقال :

سوف أريك يا أماه كيف أكون فى الذروة من أشراف العرب



وساداتهم إن امتد بى العمر ، ولم يسرع إلىّ الأجل .

* * *

عاد زهير من غزوته ، ولم يكد يصدق أن الحى سلم من إغارة المتغطرس وسطوته ، وما كاد بنو عبس يرون غبرة قادمة ، حتى فزعوا وظنوها غارة أخرى ساحقة ، فأرسلوا طلائعهم يكشفون أمرها ، وما لبثوا أن جاءوهم ببشرى قدوم زهير وجيشه ، فنهضوا فرحين ، يتلقفونه بالدفوف والمزاهر والرايات ، كأنهم يحتفلون بمقدمه ، وقد أحرز نصراً عميماً ، وفوزاً عظيماً ؛ وما لبث زهير أن ترددت فى آذانه آيات الإعجاب بعنترة ، وبطولة عنترة ، وبلاء عنترة ، وذود عنترة عن الحمى ، وفتك عنترة بالعدا ، وهذه تماضر زوجته تقص عليه من أمر عنترة ، كيف صان الحريم ، وفعل ما لا يفعله إلا كل أبى كريم . فأقام زهير الولائم ، ودعا إليها أشراف العرب وساداتهم ، وكان فيمن حضر شداد وابنه عنترة ، فما كاد يراه الملك زهير حتى دعاه إلى مجلسه ، وأعلن أن عنترة نديمه من ساعته ، ففرح بذلك مالك بن زهير ، ومن يحبون عنترة ، ولكن شاساً والربيع بن زياد قد احترقت منهما الكبود غيظاً وغماً ، وانصرف الحاضرون وآمال بنى عبس متعلقة ببنى قراد من أجل عنترة وشجاعته ومروءته .

## ١٢

استقرت ببنى قراد مجالسهم فى ديارهم ، فتقدم عنترة إلى شداد وقبّل يديه ثم قال :

أراك يا مولاى قد ضننت علىّ بأمر شاع بين الأحياء ، وعرفه الأبعدون والأقرباء ، فقال شداد :

وما ذاك يا عنترة ؟ إنا لا نبخل عليك بأموالنا ، وأعزّ الأشياء لدينا ، فأوضح ما تبغى ، فلك عندى ما تشتهى . وكان شداد قد زعم أن عنترة يبغى متاعاً أو أمة من الإماء يبنى بها ، فقال عنترة :

ألست آتياً من صلبك ، ومخلوقاً من دمك ؟ فقال شداد :

ما فى ذلك من شك ولا ريب ، فقال عنترة :

وما يمنعك حينئذ من أن تدعونى ابنك وتلحقنى بنسبك ؟ إنك إن فعلت هذا كنت لك قوة ، بعزمتى وسنانى ، وهمتى وحسامى ، وأسبغت عليك من الثراء ما لم يُسْبَغ على أحد من الأثرياء .

فزاغ من شداد بصره ، وظهر الغضب فى وجهه ، وقال من فوره :

لقد حدثتك نفسك يابن الأمة بما فيه هلاكك ، وغرّك قربك من الملك زهير ، فسولت لك نفسك أن تطلب منى أمراً فيه رفعتك وشرفك ،



ولا ينالنى منه إلا كل ضعة ، وتركنى حديث مهانة تلوكه الألسنة ، فلاجزاء لك عندى إلا الضرب بالحسام ، وقام إلى سيفه فانتضاه ، وعنترة ثابت لا يبالى من شداد بما يفعله ويراه ، وكانت زوجته سمية قد سمعت الحديث فأسرعت إلى شداد زوجها وتعلقت بصدره ، وأمسكت سيفه المجرد بيدها ، وقالت : لن أمكنك من فعلتك ، فلن أنسى أيادى عنترة السنية ، ولن يضيع مثلك صنيعه ، ويجحد معروفه ، فتكون أسوأ مثل للآخرين : أفنى بطولة ، وأطفأ رجولة ، وأقبر مفخرة ، وأمات عنترة ؛ وما زالت سمية تروضه ، حتى سكت الغضب عنه ، وهدأت نفسه ، وسكنت ثائرته ، وأعاد سيفه إلى قرابه .

* * *

كبر على عنترة ما لقيه من جحود شداد والده ، فاستحيا أن يعيش بعد ذلك فى بيت بنى قراد ، فى الوقت الذى يتبرأ فيه أبوه شداد منه ، فقصد بيت مالك بن زهير ، يبث إليه شكواه ، ويقفه على ما عزم عليه ، فإما عزز رأيه بالموافقة ، وإما وجد عنده حلا لمسألته ، فالمرء مهما تبلغ قوته وحصافة رأيه ، فهو فى حاجة إلى مشورة من صدقت لديه نصيحته . ولما نبأه قصته قال مالك : يبدو لى أنه ما دفعك إلى ما طلبت من شداد إلا أمر عظيم له مساس بما طلبت ، فهل لك أن تكشفه لى حتى لا نعدو فى الرأى وجه الصواب ، وحتى نلج الأمر بعد التمحيص من أوسع الأبواب ؟ فقال عنترة :

إنى أحب عبلة حباً حرمنى شهى الرقاد ، وحالفنى من أجله السهاد ، وما طلبت ذلك إلا من أجلها ، حتى أكون من رجالها ، وحتى لا يجد أبوها فى نفسه غضاضة من امتداد يدى إليها ، نزولا على ما تعارف القوم عليه ، واستمسك العرب به ، ولو أنهم فى ذلك خارجون عن سنة الفطرة ، لأن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، ولا فضل لأحد على آخر إلا بما له من أخلاق سامية ، وعمل صالح عظيم ، وما ذنب المواهب فى عنترة تجحد لأن ولدته امرأة كانت حرة كريمة ، فأصبحت بأسرها أمة ، وهى فى أصلها حسيبة نسيبة ، وبأى حق ينهض بالعاجز الضعيف أن أمه حرة ، ويقعد بالعامل النافع أن أمه أمة ؟ ! ولقد بلغ من السفاهة أن عد سواد اللون خسة ، وبياض اللون رفعة ، وتلك جملة الحال ، فانظر يا سيدى ماذا ترى ؟ فقال مالك وقد أخذ هذا القول من نفسه ، ورأى الحق فى جملته :

لقد كان أمرك هيناً لو أنك أطلعتنى عليه قبل أن يذاع ، ويصبح حديث الخاص والعام ، ويبدو لى أن أبواب عبلة قد غُلّقت من دونك ، ولو ألحقك أبوك بنسبه ، فإن أباها يعرف أن هذا الانتساب من أجل ابنته لامن أجل حقيقته ، فهو فى نظره نسب مقطوع معلول ، ولن يرضى لابنته إلا ذا نسب صريح خالص ، ولا أرى لك رأياً إلا أن تقيم فى دارى ، بعيداً عن كيد أبيها وكيد أعدائك ، حتى أعرض على أبى أمرك ، وعسى أن نجد مخرجاً ، فنجمع بينها وبينك ، فقال عنترة :



إنى سأذهب جميع النهار لشأنى فى الصحراء ، ثم أعود إليك فى المساء حتى لا تقع علىّ عيون الأحبة والأعداء ، فى تلك الحال الذميمة الشنعاء . فقال مالك :

لك ذلك ، والله يفعل ما يشاء .

ماج الحى بحديث عنترة وأبيه ، وجعلوا يتقززون قائلين :

يا للفضيحة ويا للعار !! إذا كان أولاد الزنا يحشرون فى أنسابنا ، وتخلع عليهم أحسابنا ! ومالكٌ والد عبلة من بينهم فى هم عظيم ، يود لو أن عنترة نزلت عليه صاعقة من السماء ، أو هوت به الريح فى مكان سحيق ، وذهب إلى أخيه شداد وقال :

أيعجبك ما حولى الآن من قيل وقال ؟ لقد أصبح أمراً محتوماً قتل عنترة ، فقال شداد :

ولكن ذلك لا يكون جهرة وعلانية ، فقال مالك :

ولا بد من ذلك ، وإن حماه وأجاره مالك ، وإلا قتلت ابنتى ، وخرجت بقتلها من فضيحتى ، فقال شداد :

لا أزال أرى أن يقتل فى غير علانية ، أو نزج به فى أمر يكون لا محالة هالكاً فيه .

* * *

سمع شاس حديث عنترة من عمه وأبيه ، وأنه فى بيت مالك بن زهير أخيه ، فقال :

اتركا لى أمر قتله ، وسيأتيكم بعد قريب خبره ؛ ونهض فتقلد سيفه وقصد عنترة يطلب رأسه ، وأصر على هذا الشطط ، رضى أخوه مالك أم سخط . فجاء شاس أخاه فى داره وسأله :

أين عنترة الهجين ابن الأمة ؟ فأجابه :

ألك عنده حاجة ؟ فقال : حاجتى أن أقتله ، وأقتل من يجيره ، فقال مالك :

لابد أن يكون هذا العبد قد فعل فعلة أثارت غضبك ، وباعدت بين الحلم وذات نفسك ، فقال شاس :

لن أنسى قتله عبدى ، ولا منجاة لهذا العبد الهجين من يدى ، فقال مالك . :

إن الحسنات يذهبن السيئات ، ولعلك تذكر له معروفاً لا ينكره كريم، فقد صان — كما تعلم — الحريم ، ودافع عن بيت أبيك دفاعاً كريماً ، وأنقذك من أسر محقق،وإذا كنت تنقم منه طلبه الانتساب إلى أبيه ، فذلك ما لا شأن لنا فيه ، وذلك ما ينبغى أن نتركه ونغفله ، حتى يأخذ بين العرب من الذيوع حظه ، فعسى أن يحسوا من أنفسهم جنوحاً للشطط فيه ، وبذلك يتبدل مناط الفخر ، ويتحول مبدأ السيادة ، فيصبح الشرف للفضيلة ، لا للنسب والثروة ، وكثرة العشيرة ، وبذلك يستقيم أمر الجماعة ، وإن عنترة يعتقد أنه مهضوم الحق من تلك الناحية ، ولهذا فقد اعتزل الجماعة ، واتخذ الصحراء له دار إقامة ،



ولعلك بعد هذا لا تراه ولا يراه أحد ، فقال شاس :

إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم ! فقال مالك :

وإن كنت لا تزال على رأيك ، فالصحراء أمامك ، وستجده هناك لا يناله سيف قاطع ، ولا يجد بغيته فيه طامع ، فقال شاس :

والبيت العتيق لئن رأيته بين الأحياء لأنزلن به الردى ، ولأجعلنه عبرة وذكرى ، ولولا أنك وأباك رفعتما ذكره ، ما طمع فى الانتساب إلى بنى عبس ، غير عابئ بما يجره علينا من مذمة ورجس ، ثم أخذ يلحف فى السؤال عن عنترة ومكانه ، فقال مالك :

لا أعلم إلا أنه غادر الديار إلى البيداء فى ظلام الليل وسكونه ، ولا أعلم له الآن مذهباً وسبيلا ، ثم انصرف شاس وهو موقن أن أخاه مالكاً لا يدرى عن عنترة شيئاً .

* * *

انتظر مالك عنترة فى داره ، ليلة ثم ليلة ثم ثالثة ، ولما لم يعد إليه ضاق صدره ، ولم يطق صبراً على فراقه ، ففزع إلى أبيه زهير ، وبسط أمر عنترة ، ثم حنق أخيه شاس عليه ، فقال زهير :

ويحك يا مالك ! لمَ لمْ تخبرنا قبل اعتزاله ، حتى أشفع له عند أبيه وعمه ، ثم أجعل له بيتاً من بيوتى ، وأزوجه من خراص الجوارى ؟ !!

فقال مالك :

رأيت حاسديه يأتمرون به ، وأنهم يتحدّثون بذلك من يحبونه ، فخشيت من بقائه فى دارى فتنة واسعة لا ندرى مداها ، وربما امتدت إلى بيت الملك فهزت أركانه ، وأقلقت جوانبه ، فأرخيت العنان لسبيله ، على أن يعود إلى دارى كل ليلة ، حتّى نتدبر الأمر ، ونكشف هذا الضر ، ولكنه لم يعد إلينا ثلاث ليال سويًّا ، فقال زهير :

لقد فرطت فى حقه ، وسأرسل الآن فى أثره من يبحث عنه ويرجعه إلينا ، ليعيش فى رعايتنا آمناً .

## ١٣

خرج عنترة من دار مالك إلى الصحراء فرأى أمامه غبرة خيل سائرة ، يبلغ فرسانها الأربعين ، فغمز جواده ليدركهم ، ويتبين أمرهم ، فوجدهم من بنى عبس ، وعلى رأسهم عياض بن ناشب ، فعرفهم وعرفوه ، وبعد أن حياهم وحيوه سأله عياض عن خروجه إلى الصحراء وحده ، فقال :

خرجت قانصاً صائداً ، ولما رأيتكم ظننتكم ممن يقطعون السبل ، ويفزعون السابلة ، فلما جئتكم ألفيتكم من صفوة الأكرمين ، وأخلص المحبين ، فقال عياض :

لقد خرجنا نبتغى الرزق والمال ، فقال عنترة :



وإن شئتم صحبتكم أبتغى ما تبتغون ، فقال عياض :

إن صحبتنا بلغت ما تريد ، وفضلناك على غيرك من العبيد .

فحزت هذه القولة فى نفس عنترة ، وحزن أن الناس فى فسحة الطبيعة الخالية لم يسلموا من عقم الرأى وبخس الفضل ، وأن ما ترك العمران من أجله ، لحق به فى وحدته وخلوته ، ثم حدق فى وجه عياض قائلا :

ماذا تعنى بقولك هذا ؟ فقال عياض :

لقد تعارف العرب على أنه إذا غزا عبد مع سادته جعلوا له ربع سهم من الغنيمة ، على سبيل التفضل والمنحة ، ولكنك إذا غزوت معنا أنت فضلناك على العبيد ورفعناك ، وأعطيناك نصف سهم مما نغنم ، فقال أحد الفرسان :

إن عنترة لا نظير له بين العبيد ، فهو يستحق سهماً كاملا ، ولو أنه كان من الأشراف والسادة ، لاستحق ثلاثة أسهم كاملة ، فنزل هذا القول على عنترة نزول الصاعقة ، وكظم غيظه فى نفسه ولم يبده لهم ، وقال :

اسمعوا يا قوم ، جدير بالحر الكريم أن يعدل ولا يظلم ، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فإن آثره كان أكرم ، وسأوثركم بفضلى ، وأمنحكم ثمرة جهادى وكدحى ، وذلك أن أغير على الخيل وحدى ، وما غنمت من شىء فلى منه مثل ما للواحد منكم ، فقال عياض :

يبدو لى أن ذلك حق لا نختصم فيه ، غير أننا نخشى العار والمذمة ،

عنه غيظه ، رؤية الحارث مقبلا على مهره ، فناداه عنترة :

أيها الفارس الكريم ، لى عندك حاجة ، ولك منى الأمان والسلامة ، فوقف الحارث فى حذر ويقظة ، وكان يبدو عليه آثار أسف وحسرة ، لأنه لم يستطع أن يدافع عن قوم أكرموه ، وكان أكرم له أن يبقى فيهم مدافعاً ، وإن مات فى سبيل الدفاع عنهم ، ولعله إذ واجه عنترة كان راجعاً إليهم ، متداركاً ما فاته بهربه . وقال الحارث :

عسى أن تكون حاجتك ميسورة ، أو لنا فى أدائها شرف وكرامة ! ! فقال عنترة :

وإن قضيتها كان بينى وبينك رباط صداقة ومودة ، [فقال الحارث :

ومن أنت حتى نزن صداقتك ، ونقدرك قدرك ؟ فقال عنترة :

أنا الذى فررت منى لما خفتنى وأعطيتك الآن أمانى وحمايتى ، فقال الحارث :

إنى أسألك عن نسبك وحسبك ، فقال عنترة : نسبى سيفى ورمحى ، وحسبى كرم نفسى وعلو همتى ، فقال الحارث :

إنك إذاً لموضع آمال الناس ورغباتهم ، فقال عنترة :

والكريم لا يرجو إلا كريماً ، ولهذا عرضنا عليك حاجتنا ، فقال الحارث :

وما حاجتك ؟ قال :

أن تبيعنى هذا المهر الذى أنت راكبه ، بالثمن الذى تقترحه ، أو تهبه لى هبة كريمة ، ولك عندى من المعروف أضعاف ثمنه ، فقال الحارث :

إن حاجتك هذه فات أوانها ، ومضت ساعتها ، وإنك لو سألتنى هذا المهر وأنا فى بنى قحطان لمنحتك إياه راضى النفس ، ومنحتك معه غوالى الإبل ، ويبدو لى أنه فى متناول يدك إن أنت أجبتنى إلى طلبتى ، فقال عنترة :

هاتها أيها الفارس الكريم ، فقال الحارث :

وأظنها محببة إلى نفسك ، وأعزُّ من أجلها عندك ، فقال عنترة :

لعلها ذات صلة بالفضل والمروءة ؟ ! فقال الحارث :

هى من هاتين فى الصميم ، ولا يقدرها قدرها إلا كريم ، فقال عنترة :

ولك منى أن أقضيها قبل أن تذكرها وتطلعنى عليها ، فقال الحارث :

أن تشاركنى فى المروءة ، فتأمر العبيد أن يعطونى ما غنمتم من نساء ومال ، لأردها إلى أربابها من بنى قحطان ، على أن تأخذ منى هذا الجواد وتجعل لى من قومك الأمان .

فعرف عنترة صدق مروءته ، وكريم سجيته ، وعز عليه ألا يكون فى ذلك مثله أو أكثر منه ، فقال :

قد اشتريت منك هذا الجواد بهذه الغنيمة ، ولك عندى بعد ذلك يد



غير منسية ، وذمة لا تخفر ، وأمان من قومى لا يكدّر ، ثم أخذ عنترة الجواد ، وشيع الحارث بالغنيمة حتى غاب عن الأبصار ، ثم رجع إلى العبيد ، فساروا الهوينى حتى أدركهم بنو عبس .

لم يجد بنو عبس الغنيمة ، فسألوا عنها عنترة ، وهم منه فى دهشة وحيرة :

ويل لك يا ابن زبيبة ؛ أين ذهبت بالغنيمة ؟ ! فقال والثبات ملء قلبه :

دفعتها ثمناً لجوادى هذا ، وكسبت لكم بها حمداً ومفخرة ، ودفعت عنكم عاراً ومذمة ، فقد رأيت صاحب هذا الجواد جميل الشيم ، عظيم الوفاء والكرم ، وقد عاب علينا سبى النساء والغلمان ، فى غفلة من الرجال والفرسان ، فدفعت عنكم هذه النقيصة ، بإرجاع ما كسبناه من غنيمة ، وآثرت بذلك حسن الثناء ، على فضل المال والثراء .

استاء عياض لما فعله عنترة وقال :

جعلنا نصيبك من الغنيمة فوق نصيب العبيد ، فآثرت نفسك ، وأكلت أموالنا عدواناً وظلماً ؟ ! ! فقال عنترة :

لقد كان ما كان ، وسأخلفها لكم من غير هذا المكان ، إن بقى عهدنا ودامت صحبتنا ، وإذا كان هذا لا يرضيكم ، فليحكم السيف بينى وبينكم .

فاشتد غضب عياض وصرخ فى صحبه : حاربوا هذا العبد الأسود . الذى بغى عليكم وتمرد ، وإلا تفعلوا كتب عليكم الخزى والهوان .

ولما رآهم عنترة قد استجابوا لصرخته ، انسل من بينهم بجواده ، وأنذرهم موتاً وهلاكاً ، فلما أحسوا بأسه ، وسمعوا وعيده ، وقفوا حيارى ، يدفع بعضهم بعضاً إلى منازلته وهم لا يفعلون ، ثم قالوا لعياض كبيرهم : ما دمت قد أشرت علينا بقتاله ، فتقدم أنت لمقارعته ، وإن رأيت الإعراض عن مخاصمته والرضا بما فعله فنحن راضون ، فقال عياض :

ما خاب من استشار ، ولقد بلغ هذا العبد من القوة ما جعلنا نيأس من قهره ، وخيرلنا أن نتخذه عضداً ، وحامياً وسنداً ، فقالوا :

تقدم حينئذ إليه ، وامنن بالغنيمة عليه ، واجعلها منحة وإهداء ، ليكون لنا حمى وملاذاً ، فقال :

ذلك خير لنا وأسلم ، ثم تقدم إلى عنترة وقال :

ويحك يا ابن العم ، لقد كنت أحسبك صادق الفراسة ، تميز جدّ القول من هزله ، وما كنا لنحملك على أن تشهر سلاحاً فى وجه بنى عمومتك ، من أجل غنيمة ملكناها بسيفك وشجاعتك ، فإذا جعلتها لك فلا بأس علينا من ذلك ، وقد رضينا بما فعلت ، وحمدنا لك ما صنعت ، على أنك لم تستول عليها لنفسك ، بل جعلتها دفعاً للعار عنا ، وثمناً لهذا الجواد الذى يعود نفعه علينا .

وظن عنترة أن هذا القول خديعة ، فلان فى قوله لهم ، ليطلع على ما فى نفوسهم ، فقال :



وإنى لن أنسى معروفكم ، ولا أجرد سيفاً فى وجوهكم ، فما أنا إلا عبدكم ، وصنيعة نعمكم ، ولولا أنتم ما كنت بين الناس مذكوراً ، ولا عند أحد مشكوراً .

وظن عياض أن عنترة قد خدعه زخرف قوله ، فالتفت قائلا إلى صحبه : ما قلت لكم إلا ما سمعتموه من خالص المودة ، وصادق المعونة ، لفارسنا عنترة ، ولقد طمع أن يأخذ هذا الجواد لنفسه . فصاحوا معاً :

وهبنا له هذا الجواد فرحين ، كما وهبنا له الغنيمة غير آسفين ؛ وانطفأت النار فى ظاهر من الأمر ، وإن بقيت متأججة فى خفيه ومكنونه ، وعنترة مدرك حقيقته وسره ، ومتخذ له حذره .

وتحرك عياض وجماعته يؤمون الديار ، والغيظ من عنترة يكاد يتقد فى النظرات والأبصار ، وأخذوا يتناجون خفية : كيف نسكت عن هذا العبد النحس ونحن أسود بنى عبس ، وشجاعتنا تملأ الدنيا ؟ ! ! إن الفرصة للغدر به مواتية ، فإذا غزونا حيًّا ، وقامت حرب بيننا وبينه ، جعلنا عنترة وقودها ، وأغلقنا فى وجهه سبل الفرار منها ، حتى يهلك ونخلص من شره ، وسمعهم عنترة يتلاومون ، ويأتمرون وهم سائرون ، فكان يسير معهم مرهف اليقظة ، حتى لا يأخذوه على غرة .

وبلغوا فى المساء وادياً فسيح الجنبات ، مخصب التربة فى ناحية ، ومُمْحلها فى ناحية أخرى ، تشرف على هذا الوادى هضبة انتشر فيها شوك

السعدان ، وارتفعت رءوسها فى مكان ، وتطامنت رءوسها فى مكان ، كأنها جماعة من الجنود بين قائم وقاعد ، وباتوا فيه إلى الصباح ، وبات عنترة معهم ، ولكنه لم يزر جفنه نعاس لأنه على يقين من أنهم يبيتون له غدراً ، ويحفرون له فى كل آونة قبراً .

وفى بكرة النهار استأنفوا رحيلهم ، فلاح لهم من بعيد جمل يحمل هودجاً ، فارتقبوه وتبينوه فإذا هو من ديباج موشى بحرير مختلف ألوانه ، يلوح على ظهر البعير كأنه قمة جبل ، وحُلّى جيد الجمل ورأسه بأنواع الحلى والزينة ، وغطى جسمه بملاءة سندسية ، رصّعت بالأحجار الكريمة ومن حوله الرجال والعبيد ، هؤلاء يحملون أسلحتهم ، وهؤلاء فى أيديهم أدوات الطرب يطبلون ويزمرون ، وآخرون على إيقاع الزمر والطبل يرقصون ويغنون ، ومن خلفهم جميعهم ستون فارساً على جياد تجيش أنفاسها فى صدورها ، وتضطرم القوة فى جسومها ، تخطو على إيقاع الموسيقى طربةً فرحةً .

عرف بنو عبس أن هذه عروس فى هودجها ، فى سبيلها إلى بعلها ، بين هؤلاء الشجعان من عشيرتها ، ولكن من هذه العروس ؟ ومن أبوها وأهلها ؟ ومنْ بعلها الذى ينتظرها ؟ ذلك ما لا يعرفون ، فقال بعضهم : وما علينا أن تكون هذه العروس بنت فلان أو زوجة فلان ، إنها غنيمة سيقت إلينا ، فلنغتنمها عوضاً عما فاتنا ، فهموا على خيلهم بالإغارة عليهم



وأسرع فرسان العروس إلى لقائهم ، وصافحت السيوف الرقاب ، وجالت الرماح فى الصدور والأجسام ، ودارت الدائرة على فرسان العروس ، فقتل منهم خمسون ، وفر عشرة بجيادهم ، وانجلت المعركة لبنى عبس عن نصر عظيم ، ولم يشأ عنترة أن يشترك معهم فى هذه المعركة ، حتى لا يمكنهم من تحقيق ما عزموا عليه من اغتياله فى أثناء القتال .

وجد بنو عبس هودج العروس كأنه مقصورة من مقصورات الجنان ، تتألق فيه العروس بجمالها ، وتبرق عليها حليّها وحلاها ، وتلمع على جبينها درة يتيمة ، يحليها وجه يخجل البدر من جماله ، على قوام ممدود ، وجسم يشع نضرة ، ويفيض نعمة ، فعلموا أنها من بنات الملوك ، وعرفوا من العبيد أنها أميمة بنت حنظلة الذى يدعى شارب الدماء ، وأن بعلها نائل بن الجراح فارس اليمن وصنعاء .

قال عبيد العروس لبنى عبس : لقد ركبتم بعملكم هذا أصعب الأمور وفتحتم لأنفسكم أبواب القبور ، وخير لكم أن تتركوا العروس ومن معها ، وتطلبوا لكم مفرًّا أو مهرباً ، قبل أن يفوت الأوان ، ويسقيكم أهلها كؤوس الهوان . فقال عياض :

ما أنتم إلا عبيد تقيسون الأمور بعقولكم ، وتحسبون الهين عسيراً ، والورم سمناً ، فظننتم أن وراءكم من يستردكم منا ، ويستخلصكم من أيدينا ، وذلك أمر دونه تقطيع الرقاب ، فلا تظنوا بنا الظنون ، فقد خرجنا

لتهدى إلى من تشاء ريب المنون ، وأخذوا يقطعون الفيافى والعروس ومن معها من العبيد مأسورون ، تعلو وجوههم غبرة الهزيمة ، ويتقلبون على نار من الأسى متأججة ، والعروس تندب حظها ، وتسيل دموعها على خدها ، فبعد أن كانت تنتظر من بعلها وعشيرته استقبال الكرام ، إذا هى تساق مأسورة سوق الأنعام ؛ كل أولئك وعنترة فى معزل من أمرهم ، ولكنه واقف على كل ما دار بينهم ووقع منهم .

فر الفرسان العشرة من وجه بنى عبس ، فذهب خمسة منهم إلى أبيها ، وذهب خمسة إلى بعلها ، يحملون نبأ الموقعة ، ويطلبون النجدة ، وأيقن عنترة أنهم مُدرَكون ، وأنهم من بعد غلبهم سيغلبون ، وأنهم عما قليل ليصبحنّ نادمين . فهؤلاء فرسان من جهة أبيها يعترضون سبيلهم ، وهؤلاء فرسان من جهة بعلها يغيرون عليهم من خلفهم ، وعزم عنترة أن يتخلى عنهم حتى يذوقوا الويل ، ويلمسوا بأيديهم حاجتهم إلى سيفه وشجاعته ، وقال لهم على سبيل التقريع :

هنئتم بما غنمتم ، وأرجو ألا تعكر الأيام صفوه عليكم ، فقالوا :

ما أسفنا على مال ضائع ، ما دمنا ذوى قوة نغير بها وندافع ، فقال :

وهذه غنيمة تفوق الغنيمة الأولى كثرة وقيمة ، وأرى أن تطرحوا عليها السهام ليأخذ كل منا نصيبه ، فيقوم عليه بحمايته وحراسته ، فقال أحدهم :

عجباً لك ، أخذت الغنيمة الأولى وحدك ، وتطمع أن تشاركنا فى



الثانية ، وما قاسمتنا جهاداً فيها ، ولا قتالاً عليها ؟ ! فقال عنترة :

ولقد وهبتم لى الغنيمة الأولى ، والكريم لا يسترد ما وهب ، ولا يتبعه منا ولا أذى ، فقال عياض :

صدق ابن زبيبة ، وما كان لنا أن نهب شيئاً ونسترده ، فاطرحوا السهام على هذه الغنيمة ، وأعطوه منها نصيبه ، فهو عبدكم ، وشرفه من شرفكم .

فغاظ عنترة أنهم لا يزالون ينادونه عبداً ، ولكنه كظم غيظه وقال :

على أن يكون لى نصفها ، ولكم جميعكم نصفها ، فقالوا :

لقد طمعت فى المحال يا ابن زبيبة ، وما نحسبك الآن إلا أنك تهذى هذيان المحموم ، فقال :

لا يهذى إلا مجنون أو معتوه ، وأنا أعرف ما أقول وأعنيه ، وأستطيع حملكم كرهاً عليه ، وإن لم تجيبوا دعوتى وتعطونى نصف الغنمة قاتلتكم ، وسللتها من أيديكم كما تسل الشعرة من العجين ، فانظروا ماذا أنتم فاعلون ، فثار عياض غاضباً وقال لصحبه :

دونكم هذا العبد الأسود ، الذى بغى وتمرد . وكان قد بان لهم إذ ذاك غبار يمشى على الأرض مشى السحاب ، يضىء ظلامه بريق أسنة وسيوف كالكواكب ، وبعد قليل سمعوا أصواتاً تملأ الأسماع نذيراً :

إلى أين المفر أيها الجبناء ، من حنظلة شارب الدماء ؟ لقد أتاكم

بجنده وخيله ، ولا منجاة لكم من يده ، وكان مع حنظلة ثلاثمائة فارس يخبون فى الحديد ، فانصرف بنو عبس عن قتال عنترة ، إلى لقاء هذه الغبرة المقبلة ، وعلم عنترة أن هذا اليوم يوم عسير ، وهو عليهم غير يسير ، فعزم على أن يتركهم وشأنهم ، ويكلهم إلى أنفسهم ، فلا يمدّ يد المعونة إليهم ، حتى يستصرخوه ، وأطلعهم على عزمه فقال :

يا بنى عمومتى ، قد جاءتكم جنود لا قبل لكم بها ، ولا مهرب لكم منها ، وقد طبع الحسد على قلوبكم ، فقطعتم حبل المودة بينى وبينكم ، بما أخذتم من المواثيق خفية على قتلى ، والآن قد غفرت لكم خطيئاتكم ، وجعلت نصيبى من هذه الغنيمة لكم ، فقاتلوا إن كنتم رجالاً دونها ، وادفعوا عنكم من جاءوكم يستردونها ، وأنا فى معزل عنكم ، ولا شأن لى بكم وإلى اللقاء ، إن بقيتم من الأحياء ، ثم تركهم إلى رابية عالية ، اتخذ منها مجلسه ، وبجواره جواده ، ينظر أمر الفريقين ، ومصير الجمعين .

وما لبث غير ساعة حتى سال الوادى بخيل الأعداء ، فلم يكن لبنى عبس إلا الكفاح واللقاء ، وقامت حرب ضروس ، التهمت النفوس ، وطوحت بالرءوس ، ولقى بنو عبس فيها عسراً وضيقاً ، واسترد حنظلة عبيده وابنته ، فتحركت الحمية فى صدر عنترة ، وأنسته الغيرة حقد بنى عبس عليه ، فهم أن ينكل بأعدائهم ، ويرد إليهم مغانمهم ، وركب جواده ، وانقض كالعقاب من رابيته ، وجعل يحصدهم حصداً ، وهم



يتساقطون بين يديه تساقط الورق الجاف مرت به ريح عاصف .

انتعش بنو عبس وقال بعضهم لبعض :

وشرف أنسابنا إن هذا العبد لأحق بالمغانم منا ، وإنه الآن لأحب إلى أنفسنا من أبنائنا ، وقاموا بما يستطيعون من معونته ، حتى فر الأعداء مقهورين ، مخلفين العروس ومن معها من عبيد ومغانم ، فأحاط بنو عبس بعنترة معجبين فرحين ، وقالوا :

لله درك من فارس صنديد ! ! وإنك فينا ذو شجاعة و بأس شديد ، ولو أخذت المغانم جميعها لكان ذلك قليلا بجانب جرأتك ، وعظيم وفائك وكريم مروءتك ، وإنا نلقى الآن بين يديك معاذيرنا ، لتغفر لنا خطايانا ، وما وقعنا فيه من فساد الرأى وسيئ الصحبة . فقال عنترة :

والكريم يقبل المعذرة ، ويعفى من الزلة ، ولا يجد فى نفسه من ذلك غضاضة ، وقد عفوت عنكم ؛ ثم جمعوا الأسلاب والمغانم ، وساروا فى غبطة إلى ديارهم .

أما بعلها نائل بن الجراح فقد وصل إليه نبأ العروس ، وكان شجاعاً تهاب سطوته ، وتخشى قوته ، له فى المعارك جولات أى جولات ، فنادى فى بنى معن : الخيل الخيل ! النجدة النجدة ! فلبوا النداء ، ونفر معه خمسة آلاف فارس ، يطلبون بنى عبس ، وقد فرقهم خمس فرق ، وأخذت كل فرقة سبيلها ، حتى لا يفوتهم درك عدوهم .

ولما كان بنو عبس على مقربة من ديارهم ، لمحوا غباراً سد الأفق من خلفهم ، فوقفوا شاخصين إليه ، وإذا فرسان بنى معن مقبلون عليهم ، تهتز فى أيديهم سيوفهم ورماحهم ، ويتقدمهم بعل العروس نائل بن الجراح ، وهو يصيح قائلاً :

لا مفر لكم من ابن الجراح ، أسد البطاح ، ومستل الأرواح ؛ فهال بنى عبس ما رأوا وما سمعوا ، ودخل بعضهم فى بعض خوفاً مما توقعوا ، وعنترة تبرق فى فه ابتسامة مرحة ، ففزعوا إليه قائلين :

يا سيد الفرسان ، لقد علمت الآن كيف تطير هاماتنا ، وتذهب نفوسنا ، وليس لنا مهرب ولا حيلة ! فقال :

أيها السادة الأمجاد ، إن الآجال محدودة ، والأعمار مقدورة ، لا تبديل فيها ولا تغيير ، ولا تقديم ولا تأخير ، فمن امتد أجله تخطاه الموت وتركه ، وإن كان تحت السيوف والأسنة ، ومن جاء أجله أدركه الموت وإن كان فى برج مشيد ، وإنى لمثل هذا اليوم لمرتقب ، فخوضوها معى ولن يصيبكم إلا ما كتب لكم .

ثم حمل عنترة على الأعداء حملة الأسد الضارى ، وحمل معه بنو عبس ، وجعل عنترة يوزع المنايا ، وينثر على الأرض الضحايا ، ولما رأى ابن الجراح مقبلا عليه ارتد على عقبه ، ليفسح المجال لنفسه ، ويمكن منه سيفه ورمحه ، وابن الجراح مستمر فى إقباله ، يحسبه مدبراً من خوفه ، واشتد به طمعه ، وأيقن أنه قاتله ، ولكن عنترة لم يمهله ، فلم يكد



كل منهما يبغى صاحبه ، حتى هجم عليه عنترة وقتله .

ثار جيش ابن الجراح ثورة علا فيها صياحه ، وتكاثروا على عنترة من كل ناحية ، يثأرون لفارسهم ، وينتقمون لأنفسهم ، واشتدت وطأة القتال على عنترة ، حتى طاب له الموت واستعذبه ، وهم لا ينالون منه ولا يتحولون عنه . وقد فر جماعة عياض وتركوه وحيداً

وبينما هم على هذه الحال إذ طلع عليهم جيش له همهمة كهمهمة الرعد ، يتقدمه مالك بن زهير ، على جواد يتدفق تدفق العقاب ، وكان هذا الجيش قد جهزه زهير للبحث عن عنترة ، فلقى مالكاً فى طريقه عبسى من رجال عياض دله على مكانه ، وكان ممن فر من الموقعة هارباً ، وقال :

لقد تركنا عنترة فى حومة الوغى ، تنهب الرماح جسمه ، ويحيط به الموت من كل مكان . فصاح مالك : لقد هلك عنترة وأيم الكعبة ، لئن كانوا قد قتلوه لآخذن بثأره مائة فارس منهم . وأسرع إليه ، وأمر الجيش أن يخوض المعركة وينشط للتفتيش عن عنترة ، فتسابق الفرسان إلى نجدته ، واستعاد عنترة نشاطه ، واستحث حسامه ، وجعل يرفع إلى السماء الأرواح ، ويلقى الجثث فى البطاح ، والجيش يشد أزره ، ويحمى ظهره ، ويحول بينه وبين من يريده من الأعداء ، حتى هزم بنى معن ، وحاز أميمة وغيرها من عبيد ومغانم ، ثم رجعوا إلى ديارهم مظفرين غانمين .

* * *

ونادى البشير معلناً قدوم مالك بن زهير وعنترة ، فى جيوش المليك المظفرة ، فأسرع زهير إلى لقائهما فى جمع حافل من سادات العرب وكبرائهم ، ومن بينهم شداد ، ومالك أخوه ، وعمرو ابنه ، وشيبوب أخو عنترة ، الذى أظلمت الدنيا فى عينيه مدة غيبة أخيه ، ثم أضاءت بقدومه سالماً ، ومن حول الملك الرايات المرفوعة ، ومن خلفه من خرج إلى اللقاء من شعبه ، وفى ساحة فسيحة من مدخل الديار ، وقف الجمع وقفة الانتظار ، بين مظاهر الفرح والإكبار ، فكنت ترى جماعات مبعثرة ، فهذه جماعة تلعب بالعصا ، وتلك يتسابق على الجياد فرسانها ، وأخرى ترفع الصوت بنشيد الحماسة والنصر ، وهؤلاء يضربن على الأكف ويغنين أغنيات تفعل بالألباب ما لا يفعله السحر .

وتقدم عنترة إلى المليك فقبل يديه ، وهذا قبله بين عينيه ، وعتب عليه رحيله دون أن يعرض عليه ما أغضبه ، وحبب إليه الفرقة والاعتزال ، فقال عنترة : لا يزال الأمر بين يدى مولاى ، وما زلت مغموراً بفضل سيدى مالك ، الذى نجانا من المهالك ، وما زلت عبد معروفك ، وغرس نعمتك .

لم تكن عودة عنترة إلى الديار على هذه الحال السارة بمستساغة فى نفوس كل من شاس بن زهير ، والربيع بن زياد ، وعمارة أخيه ، ومالك ابن قراد ، وابنه عمرو ، وعجبوا أن رجع سالماً مظفراً ، بعد أن منوا أنفسهم بغيبته غيبة أبدية لا رجوع له منها .



وكان شداد قد اجتمع بأخيه مالك والد عبلة ، وأخبره أن الملك زهيراً عتب عليه فى أمر عنترة ، ونقم منه التفريط فيه ، ومعاملته معاملة قاسية ، فأجابه مالك أخوه :

لئن عاد هذا العبد سالماً ، واتخذ له من بيت الملك سنداً وحمى ، فإنى لا محالة مهاجر من ديارى بمن يعزّ علىّ من أهلى إلى حيث لا يعرفنى أحد ، حتى لا أكون موضع استهزاء وسخرية من أجل عنترة وحبه ، فقال شداد :

لقد أعظمت هيناً ، وكيف تهتم بعبد لا قيمة له ؟ !! ومع هذا فاهدأ نفساً واطمئن بالا ، وسأكلفه عملا يلقى فيه حتفه ، لتستريح من وجوده . وما زال شداد بأخيه حتى هدأت ثورته ، واطمأنت نفسه .

° ° °

جلس زهير فى دار الضيافة ، وقام بتوزيع الغنيمة ، فبيت الملك له نصيبه ، وكل فارس له نصيبه ، وجعل أميمة بنت حذيفة فى بيته قائلا :

هذه بنت ملك لا يجرى عليها بيع ولا شراء ، ومقرها بيت كبيت أبيها ، تنعم بما كانت تنعم به فيه ، وتحيا الحياة اللائقة بها فى نواحيه ، وأشاد بذكر عنترة وما له من المكانة عنده ، وكان ذلك على مسمع من مالك والد عبلة ، وابنه عمرو ، فاغتاظ مالك لهذا وأسر لابنه عمرو قائلاً :

لا يزال عنترة يرتفع شأنه عند زهير ، وذلك ما يزيد طمعه فى أختك

عبلة ، فقال عمرو : إن طمع عنترة فى بناتنا أفسد علينا اعتزازنا به واعتمادنا عليه ، فلو رأيت أن تعجل بزواج عبلة من سيد شريف ، لانقطع طمعه فيها ، وأصبح فى يأس منها ، وأنت تعلم مبلغ إعجاب زهير وابنه بعنترة ، ونحن لا طاقة لنا بهما ، فقال أبوه : سترانى جاداً فى تدبير مكيدة تقضى عليه ، حتى نأمن شره وشر من يحبه ويؤيده ، دون أن يعلم أحد ما دبرنا وما كدنا ؛ ثم أعلن الملك انفراط المجلس ، وذهب كل إلى شأنه .

## ١٤

غادر الملك بيت الضيافة إلى بيته ، وهناك جمع أولاده العشرة ، وجعلوا يتحدثون فى شأن عنترة ، وما وهب له من بلاغة وشجاعة ، وأفاضوا الحديث فى ذلك حتى طلب زهير عنترة ليسمعهم من نوادره ، ويقص عليهم من مواقفه ومغامراته ما يملأ نفوسهم غبطة . فلما حضر أجلسه بجواره وسقاه من شرابه ، وجعل عنترة يقص عليهم من نادر الحوادث وعجيب المغامرات ما نال به إعجابهم .

ثم أحس حاجة إلى الخروج ، فاستأذنهم على أن يعود إليهم بعد قليل ، وفى تلك الفترة عقّ شاس غيبته ، وقال فيه قولا لا يليق به ،



وعتب على أبيه أن رفعه ، وأدنى منه منزلته ، فقال أبوه :

لا ينبغى للحسد أن يتخذ سبيله إلى أبناء الملوك ، حتى لا يبخسوا الناس أشياءهم ، وحتى لا يحطوا من أقدارهم .

ثم رجع عنترة واستأنفوا الحديث فى مختلف الشئون ، حتى تناولوا به عبلة وأهلها ، فتحرك شوقه إلى الشعر ، وأنشد أبياتاً مدح بها الملك زهيراً بما هو أهل له من فضل وكمال ، فقال زهير :

لقد أوليتنى من الثناء درراً ، ولا تقم إلا ومعك منى جاريتان مولدتان وعقد من الجوهر ، لتكون رمز محبة وتقدير ، ثم انفض المجلس وشاس بن زهير فى نار من غيظ .

* * *

انقلب عنترة إلى أمه زبيبة مسروراً ، وكان قد مضى من الليل ثلثه ، فوجد نساء الحى فى انتظاره جالسات حول نار موقدة ، فى فناء فسيح أعد لسمرهن أمام الأخبية ، وكلهن فى ارتقاب عنترة ، وأشدهن شوقاً إليه وترقباً له عبلة .

أطل عنترة عليهن فدوّى المكان تحيات وزغردة ، واستوى بينهن جالساً متحدثاً ، وهن يصغين إليه فى إعجاب ويقظة وفرحة ، وهو لا ينفك ينظر إلى عبلة نظرات خاطفة تضىء لها جوانب نفسها ، وكأنها

فهمت أنه يريد أن تبدأه بالحديث فقالت :

وأين نصيبك من غنائمك ؟ لعلك وزعتها على أصدقائك وعشيرتك .
فقال :

ما عدوت الواقع ، فقد أعطيت أبى وعمى جميع ما نالنى ، وهاتان الجاريتان المولدتان وهذا العقد من الجوهر هبة لى من الملك زهير ، وجميعها منحة لك منى ، ومعها قلبى وروحى ، فتقبلتها فى ابتسامة صامتة ناطقة ، وأهدت إليه نظرة طويلة كلها ولاء ومودة .

وغرق المجلس وقتذاك فى سكون عميق ، تنفس عن أصوات نساء الحى بتهنئة عبلة ، ثم سألهن عنترة :

وكيف حال الحى وأهله ؟ فقلن له :

لقد خرج أبوك ومالك عمك فى عشرة فرسان شداد ، إلى لقاء قيس بن ضبيان من بنى قحطان ، إذ جاءهم نبأ مروره بأرضنا ، وكبر عندهم ألا يخرجوا إليه فى ابتغاء ماله ، فاستأذنهن من فوره ليلحق بهم ، ويكون عوناً لهم فيما يريدون .

* * *

خشى عنترة على أبيه ومن معه من قيس بن ضبيان وفرسانه ، وهو المعروف بين العرب بعظيم بلائه فى الحرب ، ومنعته أن يُنال ويغلب ،



كما خشى أن يعودوا مقهورين ، فيكون ذلك سبة فى بنى عبس ، وأعلن عتبه على أبيه وعمه إذ خرجا على غير علم منه إلى تلك الغارة ، وتقلد عدته وركب جواده ، وسار وأخوه شيبوب معه إلى حيث أبوه وعمه مودعاً أكرم وداع وأجمله .

وبينما هما يشقان سواد الليل ويخوضان فى ظلماته ، قال شيبوب : يا عنترة ، فأجاب :

لبيك يا ابن أمى، فقال : استمع لقولى ونصيحتى ؛ لقد أسرّت إلىّ زوج أبيك أن عمك مالكاً وابنه عمراً ومن يقاسمهما بغضك من الفرسان يتربصون بك الدوائر ، ويضمرون لك السوء فكن منهم على حذر ، ولعل أباك أحس هذا التآمر فأخفى عليك أمر هذه الغارة حتى لا تصحبهم وتكون هى وسيلة إلى اغتيالك ، فقال :

سمعاً وطاعة ، وسأريك أينا أسوأ مصيراً وأينا أهدى سبيلا .

وقطعا جميع الليل وغُدوة النهار ، ثم اعترضهما فى سبيلهما فارس من بنى عبس غارق فى دمائه ، يكاد يقع على الأرض من شدة ما ألم به ، فقال عنترة :

هذا نذير البلاء ، ولعل القوم قد نزل بهم ما يكرهون ؛ وأقبل عليه وسأله :

كيف حالك وحال من كنت فيهم ؟ فقال :

خرجنا مع سيدك شداد للإغارة على قافلة لبنى قحطان ، فوجدناهم نازلين على غدير فى حراسة قيس بن ضبيان ، ولما أحس هذا قدومنا صاح فينا صيحة زعزعت أقدامنا ثم أتبعها بهجوم أذاقنا به الويل والهوان ، وأصيب عمك مالك ، وأسر شداد مولاك ، فإذا كنت ذاهباً إليهم فخير لك أن تعود ، فلن تستطيع لقاءهم ، فقال :

لابأس عليك، ولاخوف على قومك، وسألقاهم وأذيقهم بسيفى الموت الأليم،وأرجع إلى الديار بقومى سالمين غانمين ، وأرجو لك سلامة وراحة .

ولما شارف عنترة وشيبوب أخوه الغدير لم يجدا أحداً عنده ، فدار عنترة بنظره فيما حوله ، فوجد أباه شداداً وعمه مالكاً ومن معهما من بنى قراد مأسورين ، يسوقهم قيس بن ضبيان من خلفهم ، وجعل جماعته ذات اليمين وذات الشمال من حولهم ، فغمز عنترة جواده فما لبث أن كان فى محاذاته ، فالتفت إليه قيس قائلا :

أنا ابن ضبيان كاشف الكرب ومجيب الداعى ، ألك حاجة أيها العبد الأسود ؟ فقال عنترة :

حاجتى أن تطلق سراح من أسرتهم من بنى قراد ، فقال :

خسئت وخسئ من كان على شاكلتك ، فقال عنترة :

ولن ينجيك من يد عنترة إنس ولا جان . فقال قيس :



ومن عنترة هذا ؟ أليس عبداً يعف السادة عن منازلته ؟ فقال عنترة :

وسأرغمك على احترام سوادى إن قدر لك البقاء .

وما كاد أصحاب قيس يحسون قدوم عنترة ويسمعون قوله حتى وقفوا مرتقبين ما سيكون ، ثم دعا عنترة قيساً إلى النزال ، وصال صولة أذهبت رشده ، وطعنه فى صدره فخر صريعاً ، ثم عرج على صحبه وصرخ فيهم صرخة جعلتهم فى أمر مريج ، وصدع جمعهم بسيفه ، وشيبوب يحمى ظهره فكانوا بين قتيل وهارب ، وخلفوا أموالهم وما غنموا ومن أسروا ، ثم أقبل عنترة على قومه ففك أغلالهم ، وهنأهم بنجاتهم ، ورجعوا إلى ديارهم بما غنموا فرحين ، وهناك وضعوا المغانم بين يدى زهير وأخبروه ما كان من عنترة وصنيعه ، فقال :

لا يزال عنترة يغمركم بإحسانه ، ويحميكم بسيفه وسنانه ، فجدير بشداد أن يحرص عليه حرصه على نفسه ، وأن يعلن بين العرب نسبته إليه ، ويضم إلى بيت قراد مجداً لا يسامى وفخراً لا ينال ، فكان لقوله هذا وقعه الأليم فى نفوس شاس والربيع ومالك بن قراد ومن على شاكلتهم ممن امتلأت صدورهم حقداً وحسداً .

* * *

وبينما هم على هذه الحال إذ طلع عليهم مائة فارس فى أسلحتهم ، فظنوا أنهم يريدون بهم الشر والأذى ، يقدمهم غلام حسن الخلقة ،

الحلقة ، بهى الطلعة ، فتقدم إلى الملك زهير مغرورق العين ، فسلم وحيا وقال :

إنى سليل نعمتك وغرس تربيتك فى بيتك فأجرنا من ظالم جائر لا يرقب فينا إلا ولا ذمة ، ولا يرعى عهداً ولا حرمة .

فانتبه المجلس إلى الغلام ، وكان عنترة أشدهم تلهفاً على معرفة أمره ، حتى يكون له يد فى دفع ما نزل به .

لم يكن هذا الغلام بعيداً عن بيت زهير فى نشأته ، فهو أخو مالك ابن زهير من الرضاعة ، وذلك أن أمه أسرت فى غزوة زهير لبنى مازن ، فجعلها بين الجوارى فى بيته ، وكان غلامها هذا ومالك بن زهير رضيعين ، وبدت عليها ملامح النبل والكرم ، فوكل إليها القيام عليهما وإرضاعهما ، وطابت معيشتها فى بيت زهير فاطمأن بها المقام فى ظلاله ، والبقاء بابنها فى كنفه .

وذات يوم زارتها أختها فأكرمت من أجلها ، وعرضت عليها أن ترجع معها إلى أهلها ، فكبر عندها أن تفارق بيتاً أكرم مثواها ورغب فى بقائها ، فجعلت تثير شوقها إلى أهلها حتى أسلس قيادها ورغبت أن تعود معها ، فذهبت إلى مولاتها تماضر زوج زهير متوسلة أن تعينها على العودة مع أختها ، فلبت رغبتها وأذن الملك فى رحيلها ، وشيعها فى حرس من رجاله ، مزودة بكثير من ماله .



نشأ هذا الغلام فى بيت زهير نشأة كريمة ، ورأى فيه بنو مازن بعد أن انتقل إليهم فارساً جريئاً لا يهاب سطوة ولا يخشى قوة ، كما وجدوه فى المعارك داهية وناراً حامية .

أعجبته نعيمة بنت خاله ، فتمكن حبها فى فؤاده ، ورام أن يتزوجها ولكن الحياء منعه من مكاشفة خاله فيها فأرجأ الكلام إلى حين ، عسى أن يتمزق حجاب هذا الحياء ، أو تتاح له فرصة يفضى فيها بما يشاء .

وفى فترة الإرجاء والانتظار قدم على خاله رجل من بنى برجم ، يدعى عوف بن غيلم ، وخطب إليه ابنته فى حضرة ابن أخته الغلام حصين الذى رأى ملامح الرضا فى وجه خاله ، فقال له :

خالى الكريم ، إننى أنا ابنك ، وأولى الناس بنعمتك ، فأنا أحقهم بابنتك ، فعظم على عوف أن يعترض هذا الغلام سبيله ، وهو فى زعمه لم يبلغ من الشجاعة والبأس مبلغه ، وبدا على وجهه الغضب والاستخفاف بالغلام وقوله ، والتفت إلى والد نعيمة مرتقباً ما يقول ، فقال حصين :

يلوح لى أنك ممن غرتهم أنفسهم فأخطأت فى تقدير الناس وإنزالهم منازلهم ، ولو كنت فى منزل غير منزل خالى لأزلت رأسك بحسامى ، فقال عوف :

يخيل إلىّ أن ذلك الرجل الذى يطمع فى مناوأتى والوقوف فى سبيلى لم يخلق بعد ، فقال :

لقد خلق ، وهو ذلك الغلام الذى يحدثك ، فقال عوف :

لقد أوجبت علينا الآن مبارزتك ، لأردك إلى صوابك ، أو لتكون عبرة لأمثالك ، فقال الغلام :

وأشد لزوماً من ذلك أن أنتزع بحسامى هذا الغرور من نفسك ، وأجعلك للناس آية ، ودونك وما تريد .

وعلى مشهد من العرب خاضا معركة المبارزة ، فأمسك الغلامُ البرجمى وأنزله عن فرسه ، وهم أن يضرب عنقه فأسرع إليه خاله وأمره أن يعفيه وقال :

من العار أن تقتُل ضيفاً أكل طعامى وأقام فى ذمامى ، فعفا عنه معجباً بنفسه مسروراً ، وبادر البرجمى بالخروج من الحى خائباً .

## ١٥

كان فى بنى قحطان فارس صنديد يدعى عسافاً ، شكا إليه قومه قلة المال وبؤس الحال ، فركب فى عدد كثير وجم غفير ، وأبعد فى الفيافى حتّى أشرف على حى بنى مازن ، فرأى نعيمة بنت نجم خال الغلام



بين الفتيات على غدير هناك ، وجهها مشرق ، وشعرها الطويل مرسل على قامة هيفاء ، فأحبها حبًّا عظيما ، وأرسل فى الحال رسولا إلى أبيها يخطبها قائلا :

إن عسافاً أرسلنى إليك خاطباً ، يبغى ابنتك نعيمة لنفسه ، فإن رضيت فلك ما تشاء من المهر ، وإلا أخذها أسيرة كالأمة ، وصب الويل على من يعترض سبيله ، فأجاب نجم أبوها :

لقد تزوج ابنتى حصين ابن أختى وخرج الأمر من يدى ، فإن اقتنع صاحبك فهو العربى الكريم ، وإن لم يقتنع وأنفذ إلينا رجاله حاربناه فإما انتصرنا انتصار الأحرار ، وإما متنا موت الكرام . ولما وقف عساف على إجابة أبيها قال :

لن آخذها إلا بسيفى وقد أعذر من أنذر .

وعاد حصين من غزواته ومعه مغانم كثيرة ، وأعطى خاله المهر الذى أراده ، ولكنه أنبأه أمر عساف ، فقال حصين :

إن أصر على وعيده فإنى كفيل بمحو آثاره وتخريب دياره ، ولأستصرخن مولاى الذى ربيت فى مهاد نعمته ونشأت فى قصره ، فلا يشغلك أمره ، فاطمأن خاله وأخذ يعد العدة لزفاف ابنته ، ولكنه نقض عزمه ورجع فى قوله ، إذ جاءه أن عسافاً عما قليل مقبل عليه فى جند كالرمال ، ومعه عوف بن غيلم البرجمى ، وقال :

يابن أختى ما كان لى أن أنقض أمراً أبرمته،ولكن المضطر يركب أصعب الأمور وهو عالم بركوبه ، والعاقل من ركب أخف الضررين إذا لم يكن له مفر من ركوب أحدهما ، فقال حصين لخاله :

أمهلنى عشرة أيام لا تقض فيها بشىء يتعلق بزواج نعيمة من هذا أو ذاك ، ولك بعدها فى أمر ابنتك ما تشاء .

وكان حصين بين يدى الملك زهير فى مائة فارس يشكو ويستنصر على نحو ما قرأت أولا ، فقال زهير :

أبشر يا بنى بكل خير ، فسأدفع عنك كل ضير ، وسأجمع بينك وبين زوجك نعيمة فى مسرة وطمأنينة ، والتفت إلى ابنه مالك قائلا :

سر يا بنى لنصرة أخيك ، ومعك عنترة بن شداد يعينك ويقويك ، فقال :

سمعاً وطاعة ، وليكن ما أردت .

مضى الليل وأطل وجه النهار ، وامتلأ ظاهر الحى بفرسان كالأسرد وسار بهم مالك بن زهير إلى غايتهم ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع حطوا رحالهم يستريحون .

وغادر عنترة الجمع وحده إلى الخلاء ليقضى بعض الوقت فى سكونه وصمته ، فوجد فارسين يتهيآن للقتال والمبارزة ، فقال :



ما خطبكما ؟ فاندفع أحدهما إليه وطلب أن يجيره ، فقال :

أطلعنى على جلية أمرك وأصدقنى نبأك ، فقال :

نحن أخوان شقيقان ، وأخى هذا أكبر منى سنًّا ، وأبونا الحارث بن تُبع سيد بنى حمير ، وكان له سيف يسمى الظّامئ ، ولما أحس دنو أجله دعانى إليه سرًّا وقال :

إنى أخاف عليك من أخيك فخذ هذا السيف واخف أمره عنه ، فإذا جار عليك من بعدى وظلم ، فاذهب به إلى من شئت من ملوك العرب فإنك واجد بسببه العون والغنى ، فصدعت بأمره ودفنته فى مكان بالصحراء أعرفه ، ولما مات أبى تفقد أخى هذا السيف فلم يجده ، فأنذرنى بالقتل إن لم أدله على مكانه ، ولم أر مفراً من طاعته ، وجئت به إلى مكان السيف وجعلت أبحث فيما أعرف وما لا أعرف ، ولكنى لم أجد إليه سبيلا ، فلم يصدقنى وعبثاً حاولت إقناعه ، فسل سيفه يبغى قتلى وتهيأت للدفاع عن نفسى ، فكان قدومك إلينا ، فاحكم بما ترى بيننا .

فتقدم عنترة إلى الفارس الثانى وقال :

لمَ تظلم ابن أمك وأبيك ؟ فاستكبر وأبى أن يجيبه وسل سيفه من غمده وهجم عليه يريد قتله ، ولكن عنترة سبقه وغرز رمحه فى صدره فخر صريعاً ، فشكر الأخ الأصغر لعنترة جميل عونه ، واستودعه إلى دياره وأهله .

ونزل عنترة عن جواده وجلس على الأرض هنيهة ، وجعل ينكت

الأرض بأنامله ، فعثر بغمد جذبه إليه ، وسل منه سيفاً يسيل الموت من حديه ، فعلم أن نجم سعوده لا يزال فى صعود ، ورجع إلى مالك بن زهير وقص عليه خبره ، فسر سروراً عظيما ، واعتقد أن هذا الحادث بشير فوزه ونصره .

وسبح جيش مالك فى الصحراء وهو آمن حتى شارف ديار بنى مازن ، فوجد نيران الحرب متأججة ، والقتال بينهم وبين عساف على أشده ، وسمع عسافاً ينادى فى جنده :

أن خذوا على بنى مازن الخناق ، واضربوا منهم السوق والأعناق، فلكم جميع ما تغنمون ، وليس لى فيه إلا نعيمة بنت نجم ، فأمر مالك حصيناً أن يجيبه :

يا عساف ، خاب سعيك وضاع أملك ، ولقيت اليوم حتفك ، فقد جئتك برجال ذوى سيوف ماضية لا تبقى منكم باقية ، فأجابه :

إن عسافاً لا يبالى بجمعك ، ولا يعبأ بجندك ، وسترون منى لكم هزيمة منكرة .

فأقبلت فرسان بنى عبس كالعقبان الجائعة ، وعنترة أمامهم كأنه الليل يتدفق تدفق البحر الهائج ، ودب بجمعه بين الأعداء وبين الموت ، فنثروا الجماجم نثراً ، ودمروهم تدميراً ، وانكشفت عن بنى مازن الغمة وفر عساف ومن بقى معه إلى ديارهم خائبين ، وفرح بنو مازن لهذا النصر المبين ،



وكان أكثرهم فرحاً عنترة ، وتحولت الديار فى لمح البصر من مجازر ومذابح إلى معالم أفراح تقام هنا وهناك ، للنصر الباهر الذى أحرزه بنو مازن ، واحتفالا بزواج حصين بنعيمة بنت خاله ، فهذا جمع من العرب يتفرجون على سباق الخيل وألعاب الفروسية ، وهذا حفل من الفتيات والنساء يغنين ويرقصن ، وصغار الأولاد يلهون ويمرحون بين هؤلاء وهؤلاء ، وبعد ثمانية أيام على هذه الحال دخل حصين بنعيمة ، ورحل مالك وجيشه مودعاً أجمل وداع وأكرمه ، واستقبلوا فى ديارهم استقبالا سجل لهم كل إعجاب ومفخرة .

## ١٦

كان للربيع بن زياد أخٌ يدعى عمارة ويلقب بالوهاب ، وكان بهىّ الطلعة حسَن الخلقة ، عليه مسحة من الجمال المقبول ، وكان أنيق الملبس جميل الهندام ، معجباً بنفسه وبما وهب له من حُسن التقويم ، معتزاً بجاهه العريض وثرائه الواسع .

سمع عمارة هذا شعر عنترة فى عبلة ، ووقف منه على محاسنها وسحر جمالها ، فشغف بها دون أن يراها ، ورغب أن يتزوجها ، ولكنه خشى أن يكون عنترة قد غلا فى وصفها ، وأنها دون الوصف ، أو لا تمت إليه

بسبب ، ولكن الحب يُعمى ويُصم — خشى ذلك — فكلف عجوزاً أن تذهب إليها فى دارها وتقضى معها بعضاً من الوقت لتعرف كل شىء فيها . فذهبت تلك العجوز الداهية إلى بيت عبلة زائرة ، وجعلت تتحدث إليها فى مختلف الشئون حتى عرفتها خلْقاً وخُلقاً ، عقلا وبياناً ، قريحة وبديهة ، والعجائز أقدر على استخلاص ما يرين فى يسر وسهولة ، ورجعت إلى عمارة قائلة :

لقد كنت أكره من عنترة غلوه فى وصفها ومبالغته فى تزكيتها ومديحها ولكنى بعد أن رأيتها وجدته لم يبلغ بشعره فيها ما تستحقه ، فهى فوق ذلك وأكبر وأجل وأخطر ، وما كادت تنتهى من قولها حتى كانت عبلة عنده كل شىء فى حياته ،وأصبح الحصول عليها أول شىء يفكر فيه ويسعى إليه .

لبس عمارةُ أفخرَ ثيابه وركب فى جماعة من عبيده إلى أبيها مالك ، فحيّا وسلم ، وجلس وأكْرِم ، ثم قال لأبيها :

أظن أنك تعرفنى بين العرب ، فقال مالك :

أعرفك بين ساداتهم ذا نسب عريق وحسب كريم ومجد أثيل ، وغنى ممدود وأصل محمود ، فقال :

وقد جئتك فى أمر أرجو أن يقع منك موقع القبول والرضا ، فقال :

ما دام فى يدنا قضاؤه فهو لك ، فقال :

لقد رغبت أن أوثق الرابطة بين أسرتى وأسرة بنى قراد ، فقال :



أمر مشكور ولنا فيه الشرف العظيم ، فقال عمارة :

ورأيت أن يكون ذلك بزواجى من عبلة بنتك . فوافق هذا هوى فى نفس أبيها ، إذ يريد التخلص من عنترة وشعره فيها ، فقال :

لك ما أردت ، وبالرفاء والبنين ؛ فشكر له موقفه شكراً جزيلا ، وانقلب إلى أهله مسروراً ، وأعلم أخاه الربيع ما تم بينه وبين مالك ، فقال له :

لست أرضى لك هذا الزوج ، وإن كنت مصراً عليه فأنجزه قبل أن يعود عنترة ، ولتأخذ منه حذرك فإنه فارس قوى البأس عظيم المحال ، وهو يحب عبلة حباً جماً ، وربما مسك الضر منه من أجل عبلة وزواجك منها ، فقال عمارة :

لا كنت إذا كان عنترة يهمنى أو يشغل بالى ؛ وعقد العزم على تنفيذ الزواج ، وإن رقف فى سبيله أصعب العقبات وأعظمها .

عاد عنترة من حملته مع مالك بن زهير ، فجلس إلى أمه وسألها عن عبلة وشئونها ، فقالت :

دع عنك الاشتغال بها والحديث عنها والرغبة فيها فقد أصبحت زوجاً لعمارة الوهاب ، ولم يبق إلا أن يدفع لأبيها مهرها ، فقال :

ومتى حصل هذا ؟ فقالت :

فى غيبتك مع مالك ، لنصرة حصين على عساف ، فقال :

وقد رضى أبوها ما تقولين ؟ فقالت :

رضيه وفرحَ به ، فقال : وأمها ؟ فقالت : بطبيعة الحال على رأى زوجها ، فقال : وعبلة ؟ فقالت :

ذلك ما لا أعرفه على سبيل التأكيد واليقين ، إلا أنى سمعت سرًّا أنها غاضبة نافرة ، حتى قالت : لو قطعتم جسمى وألقيتموه للوحش والطير ما رضيت بعمارة زوجاً ، فقال :

وهل ذكرتنى حين رفضت ؟ فقالت :

ذلك ما لم يُقَل . فقال :

ألا تعرفين ما حمل عمى على ذلك ؟ فقالت :

خشى العار أن تكون زوج ابنته ولا نسب لك فى زعمهم ، وغره مال عمارة وثراؤه ونسبه ، فقال :

لا يزال القوم فى ضلالهم القديم ، ولئن تعرض عمارة لعبلة لأقتلنه شر قتلة ، وهز رأسه قائلا :

وإن أمره لا يهمنى ما دام مصيره فى يدى ، فقال أخوه شيبوب وكان حاضراً :

أنا أمضى إليه الآن فى ظلام الليل ، وأذبحه بسيفى دون أن يشعر أحد من الناس ، وتنتهى بذلك قصته ، فقال عنترة :



أمهلنى قليلا حتى أذهب إلى الملك زهير وابنه مالك ، وأخبرهما لأقف على رأيهما ، فعسى أن يكون عندهما من الرأى والتدبير ما لم يخطر لنا على بال .

وانفلت عنترة فى صباح تلك الليلة إلى مالك وأخبره فقال :

الرأى عندى أن تصبر قليلا حتى أطلب إلى أبيك أن يلحقك به ، فإن فعل خاطبنا عمك فى زواجك من عبلة ، وضمنا له ما يطمع فيه من مال ، وإن أبى شداد ورفض طلبت من عمك عبلة لنفسى وأعلنت أنها لى ، وحينئذ ينقطع طمع عمارة وغيره فيها ، ثم أرجئ دخولى بها من حين إلى حين ، حتى يعرف القوم حقك ، ويحملوا شداداً على الاعتراف به ، وإذ ذاك تكون عبلة لك دون سيف يتحرك ، أو دم يراق ، فقال عنترة :

لا زلت موفقاً فى رأيك وتدبيرك .

## ١٧

خلا مالك بنُ زهير بشداد بن قراد فى داره ، وتلطَّف له فى الحديث حتى أنس ثم قال :

لقد علمت يا شداد وعلم جميع العرب فضل عنترة وشجاعته ،

وكم له من أياد بيضاء علينا لا ينكرها إلا لئيم ، فقال :

ذلك ما كان ، فقال :

وقد حكم قاضى العرب أنه ابنك ، فما يمنعك من إلحاقه بك وإعلان ذلك ؟ فقال شداد :

لم يفعل قبلى مثل ذلك أحد من سادات العرب ، وأرى فيه مساساً بشرفى ، وفضيحة لقومى ، وخروجاً عن عرف العرب ، فيه من الفضيحة ما لا أطيقه ولا أحتمله ، فقال مالك :

فلتكن أنت أول من يشرع للعرب شريعة جديدة ، ما دامت حتماً ، والحق مشرق الفضيلة ولا غضاضة فيه لدى النفوس الكريمة والعقول السليمة ، أليس من الظلم أن تجعل الولد فى رحم الحرة فيكون ابناك ، وإن جعلته فى رحم الأمة برئت منه براءة القميص من دم يوسف ؟ ! فقال شداد :

أرى أن تمهلنى حتى أنظر فى هذا الأمر على ضوء من مشورة أهلى وعشيرتى ، فقال :

لك ذلك وأرجو لك ولعشيرتك توفيقاً وسداداً .

وخلا مالك بعنترة بعد انصراف شداد ، وقص عليه ما دار بينهما من الحديث ، فقال عنترة :

لا ركبت بعد الآن فى قوم شداد حصاناً ، ولا حضرت لهم ضرباً



ولا طعاناً ، ولا سكنت بينهم أوطاناً ، ولا رضيت لنفسى معهم ذلا وهواناً ، وسأغادرهم متخذاً من سيفى ورمحى أبى وعمى ، فقال مالك :

ولن تبرح لك وطناً ما دام فى صدرى نفس يتردد ، وسيكون ما تريد على الرغم من حسادك والحاقدين عليك ، ثم أمر بالطعام فطعموا ، وقضوا وقتاً من الليل فى أخبار العرب ، والأحاديث المتنوعة .

## ١٨

كان عمارة الوهاب فى تلك الليلة فى بيت مالك بن قراد يتشاوران فى أمر عبلة ، وكيف ومتى يكون دخوله بها ، وبينما هو عائد إلى داره فى جماعة من عبيده ، التقى بعنترة وهو عائد من بيت مالك بن زهير ، ومعه أخوه شيبوب ، فسأله عمارة :

أين كنت البارحة يا بن زبيبة ؟ فإنى لم أرك بين العبيد فى بيت عبلة ، ولو رأيتك لخلعت عليك خلعة ثمينة ، لما وجدته من سادتك من كرم ومروءة ، فأجابه عنترة :

ولن أقبل منك خلعة حتى تزف إليك مولاتى عبلة ، وهذا إن تركتك حياً ، ولم أجعله أشأم عرس شهده العرب ، ويظهر أن سوء طالعك ساقك إلى عبلة ، لتلقى بسببها حتفك وتكون عبرة للمغرورين من أمثالك .

لم يكن عمارة يتوقع هذا الوعيد الصارخ ، فاستكبر وقال :

ويل لك يا أنكر العبيد ! هل أصابك الجنون ؟ أو هانت عليك نفسك وعرضتها للهلاك ، وشرف العرب لئن ذكرت عبلة بعد هذا فى شعرك ، لأقتلنك فى ضوء النهار ، فقال عنترة :

إنك لن تستطيع أن تضرب كلباً بسط ذراعيه أمام بيتى ، ولولا ما بيننا من حرمة النسب لطار رأسك بسيفى هذا ، فاغتاظ عمارة وجرد سيفه وسل عنترة سيفه ووثب على عمارة وثبة كادت تصرعه ، ولكن شيبوباً أخا عنترة قفز قفزة كان بها بينهما ، وحال بين عمارة وموته ، وكان الخبر قد وصل إلى بنى قراد ، وقوم الربيع بن زياد ، والملك زهير ، فأسرعوا جميعهم إلى مكان الحادث ، وهناك أصبح الأمر فى يد الملك زهير .

أقبل عمارة على زهير وقال :

لقد أصبحنا لا نستطيع مقاماً وهذا العبد بيننا ولولا قدومك الساعة لأفنى بسيفه من ترى من هذه الجموع ، ومع هذا فإنك تقربه وتثنى عليه فإما كفيتنا أذاه وضره ، وإما رحلنا وفى الأرض متسع لمقامنا ، فقال زهير :

وما سبب هذه الفتنة التى قامت بينكما الآن ، فقص عليه قصته فى أمر عبلة وسعيه إلى زواجها حتى التقى بعنترة :

عرف زهير أن عنترة مُعتدًى عليه ولكنه سألهم :

وما تريدون فيه الآن ؟ فقالوا :



القتل أو النفى ، فقال :

أما القتل فلا سبيل لأحد فيه ولا أرتضيه ، إذ أنه دخل دارى وطعم زادى ، وأما نفيه فالأمر فيه إلى شداد أبيه ، وعرض الأمر على شداد فقال :

ليس لى غنى عن أخى ابن أمى وأبى ، وأما نفى هذا الغلام وهو يحسن الضرب والطعن فذلك ما لا أقره ، ولا نطمئن على أنفسنا منه إذا أقدمنا عليه ، وأرى أن يقوم برعى الجمال والأنعام ، ولا يخوض غمرات الحرب والقتال ، فقال زهير لعنترة :

لقد سمعت قول شداد فانظر ماذا ترى ، فقال عنترة :

أن أطيع وأمتثل ، فأطفئت بذلك نار الفتنة وساد السلام .

لم يكن هذا الحكم يرضى زهيراً ، فما كان للملك قوى عادل أن يبطل مواهب أحد من رعيته ، له ولهم فيها كل صلاح وغناء ، ولكنه مشغول بأمر عظيم آخر ، ذلك ما جعله يسكت عليه إلى حين ، حتى ينتهى من أمر أميمة بنت حنظلة .

## ١٩

كان عنترة قد سبى أميمة بنت يزيد بن حنظلة وقتل زوجها نائل ابن الجراح ، فاستعان أبوهما بقبائل العرب الخاضعة له ، ليرد إليه ابنته ، وكانت فى بيت الملك زهير ، وبلغ زهيراً أمر هذه القبائل وتحركها إليه

ليقاتلوه ، ولهذا سكت عنه الغضب من أجل عنترة ، والحكم عليه باعتزال القتال والجهاد والاقتصار على رعى الأنعام ، ونادى فى قومه :

استعدوا وقوموا لقتال يزيد بن حنظلة الذى جاء لمحاربتكم فى دياركم ، وسنسير إليه من غدنا حتى نلقاه بعيداً عن ديارنا .

وأخذ الناس يستعدون للخروج للحرب فى صباح الغد .

أما عنترة فهو على يقين من أنهم محتاجون إليه فى قتالهم هذا ، ولكن أى موقف يختاره من قومه : أيقاتل معهم ؟ أم يتركهم رشأنهم ؟

وجاء الصباح فنهض عنترة إلى عمله ، وأمر أن تساق الجمال والأنعام إلى المرعى تحت إشرافه ، وكان الحى مملوءاً بالفرسان استعداداً للرحيل إلى ذلك العدو الزاحف .

وترك زهير فى الحى خمسمائة فارس ، وعلى رأسهم ابنه شاس ، خشية أن يختلف طريقا الجيشين المتقابلين ؛ جيش زهير وجيش يزيد ، وترك معه أخاه قيساً المعروف بالعقل وصواب الرأى . وكان من الذين تخلفوا فى الحى شداد وأخواه مالك وزخمة الجواد ، وذلك تدبير حكيم عرف به عقلاء العرب .

وصدقت فراسة زهير ، فقد انفلت الجيش إلى الأحياء بأرفه المؤلفة ، دون أن يلتقى به زهير ، وما كانت تلك القوة المخلفة فى الأحياء بقادرة على أن تصد هذا الجيش الذى لا تحصى جنوده .



ثم رآه الرعاة على مد البصر وهو مقبل فارتدوا إلى الحى مسرعين ونادوا :

أن جاءتكم الجنود الزاحفة ، فخفوا لملاقاتها ؛ ونادى قيس فيهم :
أن هبوا أنفسكم للموت توهب لكم الحياة .

التقى الفريقان بعيداً عن البيوت ، وكانت المعركة حامية ، ثقيلة الوطأة على بنى عبس ، وعنترة لا يهتم بهم ، ولا بما أصابهم ، ورأى أن فى ذلك فرصة لنيل ما يريد ، فاجتمع بأخيه شيبوب يستشيره فى موقفه من تلك الداهية ، فأشار عليه أن يستمر على عزلته حتى يعترف شداد وأخواه ببنوته

* * *

قال مالك لأخيه شداد :

أين عبدك عنترة ؟ أليس هذا يومه ؟ لو كان معنا ما هزمنا العدو ولا غلبنا ، فأجابه فى عتب وألم :

إنك سبب هذه البلية ، فقال :

وكيف كان ذلك ؟ فقال :

أنسيت أنك بخلت عليه بابنتك وهددتنا بالخروج من الديار إن لم يسكت عن ذكرها فى شعره وطلبها لنفسه ؟ فقال :

وأين هو الآن حتى نطلب معونته ؟ والتفت شداد ، فرأى عنترة واقفاً

على سفح العلم السعدى ، وفى وجهه ابتسامة السخرية والاستهزاء ، وأخوه شيبوب ينفخ فى مزماره سروراً بذلك القدر الذى إن أمهل الظالم فلن يُهْمله ، فأسرع شداد ومالك إليه وصاح أبوه فى وجهه :

أتلهو يا عبد السوء بسماع المزمار وبنو عبس على هذه الحال من الهزيمة ؟ ! فقال :

وماذا ترى أن يفعله عبد غرّ ، لا يحسن إلا الحلب والصر ؟ وشغل نفسه بالجمال يسوقها كأنه يصلح من شأنها وهو يقول فى غير اهتمام :

أنسيتم عمارة الوهاب وضخامة جسمه ؟ أنشدوا عنده النجدة ؛ فقد رأيتم فيه العز والقوة ، فقال مالك :

ليس لنا فيه الآن نفع ولا أمل ، فقال عنترة :

الآن ! ! الآن ! ! وماذا كان لكم فيه قبل الآن ؟!! فقال شداد :

نحن فى أحرج المواقف ، وليس لنا الآن غيرك ، فقال عنترة :

والآن أيضاً ؟ ! وضحك ضحكة ساخرة ؛ ثم قال :

وأنا الآن ليس لى عمل إلا ما كلفتُ به من رعى الأنعام ؛ واستمر يسوق الجمال تاركاً أباه وعمه فى موقفهما ساكتين مذهولين ، فأسرعا إليه ثم قال شداد :

ما عهدناك قبل الآن بارد القلب فاتر الحماسة فى مثل ما نحن فيه الآن ، فماذا جرى ؟ فقال :



جرى أنكم ظلمتم أنفسكم وظلمتم الناس معكم ، فحرمتمونى أباً جاء بى من صلبه ، وسلبتمونى حق الحرية ، واتخذتمونى عبداً ، والعبد لا يحسن الفر والكر ، وإنما يحسن الحلب والصر ، فقال أبوه :

يا عنترة ، كر ، فأنت بعد اليوم حر ، وقال عمه :

والآن قد ألحقتك عبس بأنسابها ، وأصبحت من أحرارها وساداتها ، وعزيز على السيد الكريم أن يتقاعد عن نصرة قومه ، ودفع ما حل بهم من الضيم ، فقال عنترة :

وبعد الآن ؟ فقال مالك :

لك عندنا كل ما تريد . وكان الأعداء إذ ذاك قد دخلوا البيوت وأسروا النساء وأسر عبلة فارس جبار يقال له سوار ، اشتهر بين العرب بسبى الأبكار ، فقال مالك ، وهو يبكى مر البكاء :

أما ترى يا أبا الفوارس بنت عمك فى يد الأعداء تساق سوق الإماء ؟ فقال عنترة :

وأين عمارة ؟ فقال مالك : لا يظهر الرجال إلا الشدائد ، وإن أزوج ابنتى إن ردّت إلىّ إلا من فارس يكشف الغمم عن قومه وأهله ، وأشهد على نفسى أنك زوجها إن أنت خلصتها ، فقال عنترة :

ولكن الإنسان كثيراً ما ينقض العهود ، فقال مالك :

لن أنقض عهداً بعد توكيده ، فالبدار البدار يا بن أخى .

وكان أخوه شيبوب يسمع لكل هذا فتقدم إليه بجواده الأبجر وقال : لقد بلغت ما أردت من آبائك من المواثيق والعهود ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، فاركب جوادك ، وأنقذ قومك وأهلك .

ركب عنترة جواده وتقلد سيفه ورمحه ، ولبس لأمته ودرعه ، وانحدر من الرابية كأنه القاضية ، فلحق بسوار وهو رائح بعبلة أسيرة ، وأنفذ فى صدره رمحه فمات ، ثم أردفها خلفه وسلمها إلى أبيها وأعمامها ، ثم تركهم إلى المعركة ، فجال جولة كأنها الزلزلة ، اختلت لها صفوف أعدائهم ، وضاعت قوتهم .

ولما رأى بنو عبس ما فعله عنترة قويت قلوبهم فهبوا من مخابئهم وألقوا فى المعركة بأنفسهم ، يساعدون عنترة ، بقدر ما بقى فيهم من قوة ، وعنترة يطوف بين الأعداء ، فلا ينجو من يلقاه أو يصيبه ، وخاف الأعداء فهربوا وفروا تاركين ما كانوا قد غنموا وأسروا ، وزالت تلك الغمة بفضل عنترة وشدة بأسه .

* * *

وكان شاس بن زهير يرى ما فعله عنترة رأى العين ، فقال لأخيه قيس : كيف رأيت ما صنعه هذا العبد ؟ فقال : ما صنع إلا ما يحمد عليه ، فقال : أى حمد يستحقه ؟ ! لقد تقاعد عنا وأضرب عن مناصرتنا



حتى غرقنا فى البلاء إلى الأذقان ، وبدا ضعفنا كما يبدو الهزال فى جسم المصدور ، ثم طلع فينا كالشمس فقشع عنا سحب الهزيمة ، وفرق الأعداء هنا وهناك ، ولاذ بالفرار من لم يصبه سيفه ، واسترد كرامتنا وأصبحنا بحيث لا يطمع أحد فينا ، وتلك خطة خبيثة لا أرتضيها ؛ وإن نفسى لتحدثنى أن أهم بقتله وهو مشغول بتطهير الحى من الأعداء حتى أستريح من خبثه ولؤمه ، فقال قيس : ويكون هذا جزاء دفعه السوء عنكم ، وتنكيله بأعدائكم فى غيبة الملك وجنوده ؟!! ويل للكرام من اللئام ، والطيبين من الخبيثين ، وإنى لأخشى عليك عاقبة مكرك ، فقد بلغ من السوء مبلغه ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، فأثر هذا القول فى شاس واعتبر بعظة أخيه ، ورجع بنو عبس إلى ديارهم ، وعنترة كالأسد بينهم ، ولم ينل أعداؤهم منهم إلا أميمة بنت يزيد ، ولو أن عنترة وصل إلى المعمعة قبل أن يأخذها أبوها ويرسلها فى الحال إلى ديارها ما استطاع الأعداء إلى أخذها سبيلا .

وبينما كان بنو عبس غارقين فى فرحهم بهذا الانتصار الباهر قدم زهير وجنوده عليهم وهو لا يكاد يصدق أن يرى أثراً لدياره ومن فيها ، إذ علم أن الأعداء جاءوا إلى قومه من طريق آخر لم يسلكه ، ولكنه ما كاد يقرب من الديار ويعلم قومه عودته وقدومه حتى وجد وفوداً من الرجال والنساء خرجت لاستقباله ، وإخباره ما كان من عنترة وشجاعته ومروءته ، فسر

زهير وجلس فى سادات قومه جلسة أكرم فيها عنترة ، وأعان شداد أنه ابنه وأنه حرّ كريم .

* * *

لم يستطع شاس أن ينظف قلبه من الحسد ، ويقف من عنترة موقفاً كريماً كقومه ، فقال :

كيف يطيع شداد هواه ، ويلحق أنكد العبيد بنسبه ، ويعكر بذلك صفو أنسابنا ، التى نفتخر بها ؟ ! فأجابه قيس أخوه :

لو كانت بنو عبس تملك أعظم من هذا وقدمته لعنترة لكان قليلا بجانب ما قدمه لكم من فضل ومعروف ، وما كنا نتوقع من حرّ كريم يقول قولتك ، ولو أن الناس كانوا حساداً مثلك لا نتشر الشر بينهم . وقال أحد الجالسين :

ومن يستطيع أن يحجُبَ الشمس بيده ، وينكر فضل عنترة ؟ ! فقال زهير :

جدير بنا أن نعظم عنترة ، ونحقق له أمنيته ، وإن انتسابه إلى أبيه حق لا شك فيه ، فقال عنترة :

لا زلت بالعدالة والفضل معروفاً ، ثم استطرد قائلا :

وقد عزمت على أن أطلب من عمى مالك أن يفى بعهده ويزوجنى



من عبلة ، فإن نقض ميثاقه أخذت لى فى الفلاة مقاماً أقطع السبيل وأنهب الأموال وأثير الفتن وأجعل كل حى ينعى ساكنيه ، فإنى بعد هذا لا أستطيع أن أعيش فى هوانة وذلة ؛ فأعجب الملك بموقفه ، ومنحه هدايا ثمينة ، تقديراً لفضله ورجولته .

( إلى هنا ينتهى الجزء الأول )